القرآن
في منهاج الطائفة المنصورة
(الجزء الأول)

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣م

منشورات الدعوة السلفية
كتاب رقم (١٠٩) جديد

القرآن
في منهاج الطائفة المنصورة
(الجزء الأول)

حلقات علمية في تفسير القرآن
على منهاج النبوَّة والسَّلَف

تأليف:
هشام بن فهمي العارف

القدس ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

المحتويات

المقدِّمَة ٧

١. اقرأ القرآن ٢٣

٢. الْقُرآنُ كلُّهُ عِلْمٌ نافِعٌ ٣٠

٣. جنون البغض للقرآن والحسد لأهله..... ٤١

٤. القرآن ذكر وتذكرة..... ٥٠

٥. القرآن العظيم تذكرة خصَّ الله بنفعها المتقين ٥٧

٦. حكمة الإقبال على المقبل والإعراض عن المعرض ٦٩

٧. الفرقان أعظم بركات القرآن ٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛

قصة أبي القرن أخرجها الإمام البيهقي -رحمه الله- في "شعب الإيمان" عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - بسند صحيح، وأوردها شيخنا الإمام محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله- في "السلسلة الصحيحة" (٢٦٩٤) وعنون لها:

١- "هل أصابنا ما أصابهم"؟

قلت: نعم أصابنا ما أصابهم. وتعال معي لنقرأ نصّ القصَّة: قال رسول الله ﷺ:

٢- "إن بني إسرائيل لما طال الأمد وقست قلوبهم، اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، فقالوا: اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم عليه، فاتركوهم، وإن خالفوكم فاقتلوهم، قال: لا، بل ابعثوا إلى فلان - رجل من علمائهم - فإن تابعكم فلن يختلف عليكم بعده أحد، فأرسلوا إليه فدعوه، فأخذ ورقة

فكتب فيها كتاب الله، ثم أدخلها في قرن، ثم علَّقها في عنقه، ثم لبس عليها الثياب، ثم أتاهم، فعرضوا عليه الكتاب فقالوا: تؤمن بهذا؟ فأشار إلى صدره - يعني الكتاب الذي في القرن - فقال: آمنت بهذا، ومالي لا أؤمن بهذا؟ فخلوا سبيله. قال: وكان له أصحاب يغشونه فلما حضرته الوفاة أتوه، فلما نزعوا ثيابه وجدوا القرن في جوفه الكتاب، فقالوا: ألا ترون إلى قوله: آمنت بهذا ومالي لا أومن بهذا، فإنما عنى بـ (هذا) هذا الكتاب الذي في القرن قال: فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين فرقة، خير مللهم أصحاب أبي القرن".

بيَّن الحديث أن بني إسرائيل كانوا إذا سمعوا التوراة رقَّت قلوبهم وخشعت لله تعالى، حتى طال عليهم الزمن - يعني بَعُد زمن الأنبياء عنهم والرسالات - فضَعُف الإيمان فيهم إلى أن غلبت الشهوات، واستحدث المبتدعة لأجلها في الدين الشبهات، فغلب عليهم الجفاء والقسوة، وبدأ الاختلاف يدقّ في عروقهم، والغلّ ينبت في قلوبهم، والحقد يأكل من أكبادهم، والانقسام يقع على أرضهم. فتجرءوا على حرمات الله، وصاروا إلى الهوى بل وآثروه على الهدى. ونسوا حظّاً مما ذكّروا به، وأهملوا وعظ الطائفة المنصورة لهم في بيت المقدس.

إن الضعف في الإيمان، مع ولوج البدع والأهواء في الاعتقادات والعبادات، بل والسكوت عن الشركيات والدفاع عنها، وجريان الفساد في شرايين طبقات الإسرائيليين، إلى أن وقعت الاختلافات بينهم والانقسامات، سمح للجتمع المتهافت المتعلق غالبه بالدنيا لظهور طبقة عريضة من علماء السوء في سلطتهم الدينية، فعملوا على نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وكتموا صوت الحق والطائفة المنصورة.

قال الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-:

٣- **"إذا قَلَّ العِلْمُ ظهر الجفَاءُ، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء"**.[١]

ولم يقف فسادهم عند حدِّ نبذ كتاب الله وراء ظهورهم بل أقدموا على اختراع كتاب من عند أنفسهم هو من صناعتهم الضالة في مسائل الإيمان وغيرها فاستهوته قلوبهم، واستحلَّته واستلذّته أنفسهم وألسنتهم. لقد سنّوا فيه من التحريفات والتأويلات ما يوافق أهواءهم وتستلذُّه ساستهم، لأن الحق الذي في التوراة كان يحول بينهم وبين ما يشتهون.

إن هذا الضلال الذي عاش فيه المجتمع الإسرائيلي زمن أبي القرن -رحمه الله- في بيت المقدس دفعهم أخيراً إلى نبذ كتاب الله التوراة وراء ظهورهم.

ولقد ابتلي الناس - اليوم - بالدعوة السلفية والطائفة المنصورة في بيت المقدس في المسجد الأقصى، فماذا الناس فاعلون حيالها؟!! قال تعالى:

٤- **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ (سورة البقرة)**

قال قتادة:

٥- **"إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكتموه وجحدوا به".**

وقال الشعبي:

٦- **"هو بين أيديهم يقرؤونه؛ ولكن نبذوا العمل به".**

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٧- **"وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين، وهم يعلمون صدقه، وحقيقة ما جاء به".**

---

(١) "مجموع الفتاوى" لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/٣١٠).

وقال تعالى:

٨- ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ (سورة المائدة)

قال الشنقيطي -رحمه الله-:

٩- **"ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن كثيراً من اليهود نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يؤمنوا به، وبين في موضع آخر أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالكتاب هم الأكثر، وذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران:**

١٠- **﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠)﴾**

فكان المقصود من التوراة والإنجيل والقرآن العمل بمقتضاها، لا الاقتصار على تلاوتها باللسان وترتيلها، قال تعالى:

١١- ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (سورة الزمر)

قال القرطبي -رحمه الله-:

١٢- **"فأمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه، لكن تركنا ذلك، كما تركت اليهود والنصارى، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئاً، لغلبة الجهل وطلب الرياسة واتباع الأهواء".**

أضف إلى الذي تقدم الإعراض عن الدعوة السلفية، والبدء في الهوى قبل العمل، فعن عبد الله بن مسعود بسند صحيح قال لإنسان:

١٣- **"إنك في زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه، تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه، قليل من يسأل، كثير من يعطي، يطيلون الصلاة ويقصرون فيه الخطبة، يبدؤون فيه أعمالهم قبل أهوائهم. وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثير من**

يسأل، قليل من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يبدؤون فيه أهواءهم قبل أعمالهم".[1]

قال ابن بطّال -رحمه الله-:

١٤- **"فذمَّ من حفظ الحروف وضيع العمل ولم يقف عند الحدود، ومدح من عمل بمعانى القرآن وإن لم يحفظ الحروف، فدلَّ هذا على أن الحفظ والإحصاء المندوب إليه هو العمل"**.[2]

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

١٥- **"فأما الموفقون، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلّموا الناس مما علَمهم الله، ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفاً من إثم الكتمان. وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق، وراء ظهورهم فلم يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤاً على محارم الله، وتهاوناً بحقوقه تعالى، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمناً قليلاً، وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهوائهم، المقدمين شهواتهم على الحق. (فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق، الَذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدنيوية - أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له"**.

وكشف حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - ما عليه المنافقون والمبتدعة من غلٍّ على الدعوة السلفية، لأنهم أرادوا حمل الناس - بعد سقوطهم في الابتلاء - على اتباع أهوائهم الضالة، ليبلغوا شهواتهم بكل الوسائل. إنهم وفي خضم الوصول إلى أهدافهم الخبيثة الحقيرة باعوا

---

(١) "الموطأ" للإمام مالك، والحديث له حكم المرفوع.

(٢) "شرح صحيح البخاري"(٤٢١/١٠).

أنفسهم بأرخص الأثمان، وأرادوا هذا لغيرهم، فمن باع من الناس دينه وسقط سقوطهم خلّوه، ومن امتنع قتلوه!! **"فإن تابعوكم عليه فاتركوهم، وإن خالفوكم فاقتلوهم"**.

وأشار الحديث إلى أهمية العلماء الذين يمسّكون بالكتاب والسنة، فهؤلاء أخذوا الكتاب بجد وعزم، ولم يتلوَّنوا، وثبتوا ولم يتغيَّروا، وعملوا فيه وأخلصوا وإخلاص، ولم يرتشوا ولم يزوِّروا، ولم يكذبوا، ولم يجبنوا، ولم يبيعوا دينهم. لأنهم جعلوا ولايتهم خالصة لله، فهم ظاهرون على الحق، لأنهم على منهاج النبوة والسلف، وعلى الرغم من قلّتهم إلا أنهم كانوا ولا يزالوا شوكة في خاصرة (الكلّ)، بل شوكة دقيقة في حلوقهم، قال تعالى:

١٦- ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**(١٧٠)﴾ (سورة الأعراف)

قال مجاهد -رحمه الله-:

١٧- **"هؤلاء المؤمنون . . . لم يحرِّفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة"**.

وقال البقاعي -رحمه الله-:

١٨- **"أي: يمسّكون إمساكاً شديداً يتجدد على كل وجه الاستمرار، وهو إشارة إلى إن التمسك بالسنة في غاية الصعوبة لا سيما عند ظهور الفساد"**.

وختم الله تعالى الآية بوصف الطائفة المنصورة بالمصلحين، لأنهم غرباء قائمون على الإصلاح وإزالة الفساد. قال الشيخ العلامة السعدي -رحمه الله-:

١٩- **"وهذه الآية وما أشبهها دلت على أن الله بعث رسله - عليهم الصلاة والسلام - بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم"**.

والطائفة المنصورة كما كانت في بني إسرائيل هي أيضاً في أمة محمد ﷺ، فمن كان تمسّك بالكتاب والسنة فآمن بموسى ﷺ وعمل بمقتضى التوراة نجا

وانقاد بفضل من الله تعالى ليؤمن بعيسى ﷺ، ومن آمن بعيسى وعمل بمقتضى التوراة والإنجيل نجا وانقاد بفضل من الله تعالى ليؤمن بمحمد ﷺ، ومن آمن بمحمد وعمل بمقتضى القرآن والسنة الصحيحة نجا وكان مع الطائفة المنصورة وانقاد بفضل من الله تعالى ليكون إن شاء الله تحت لواء المهدي -عليه السلام- قال تعالى:

٢٠- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ(٤٤)﴾(سورة المائدة)

قال ابن كثير -رحمه الله-:

٢١- **"قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها".**

وقال السعدي -رحمه الله-:

٢٢- **"فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام قد اقتدوا بها وائتموا ومشوا خلفها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟ وما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل ظاهر وباطن، إلا بتلك العقيدة؟ هل لهم إمام في ذلك؟ نعم لهم أئمة دأبهم التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس، والتأكل بكتمان الحق، وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال الذين يدعون إلى النار. وقوله: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ أي: وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين، أي: العلماء العاملين المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين. والأحبار أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم. وذلك الحكم**

الصادر منهم الموافق للحق ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه. وهم شهداء عليه، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه، فالله تعالى قد حمَّل أهل العلم، ما لم يحمله الجهّال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حمّلوا. وأن لا يقتدوا بالجهال، بالإخلاد إلى البطالة والكسل، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة، من أنواع الذكر، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأمور، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا. وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم، فإنهم مطالبون أن يعلّموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصاً الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها، وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم، ولهذا قال: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ فتكتمون الحق، وتظهرون الباطل، لأجل متاع الدنيا القليل، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعادته، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه ما أودعه من العلم، واستشهده عليه، وأن يكون خائفاً من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين.

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلداً للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبال بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ المال على فتاويه، ولم يعلّم عباد الله إلا بأجرة وجعالة. فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة، كفرها ودفع حظاً جسيماً، حرم منه غيره، فنسألك اللهم علماً نافعاً، وعملاً متقبلاً وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزلَ اللَّهُ﴾ من الحق المبين، وحكم بالباطل الذي

يعلمه، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه. وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر قد استحق من فَعله العذاب الشديد".

أما هؤلاء الخسيسون الجبناء الدّجاجلة الذين خرجوا على الدعوة السلفية في المسجد الأقصى من داخل فلسطين وخارجها فإنهم فسدوا وأفسدوا فباعوا دينهم ونافقوا، وما انتسابهم إلى السلفية إلا زوراً وبهتاناً، وهم قطيع ضلاّل كذبة مكشوفة أفعالهم لكل بصير. فنفاقهم بات واضحاً يشمئز منه كل عارف بأحوالهم. فالله تعالى ذكر أمثالهم في بني إسرائيل فقال:

٢٣- **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ. . .﴾**(١٦٩) (سورة الأعراف)

قال ابن كثير -رحمه الله-:

٢٤- **"يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم . . يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدنيا، ويسرفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه". ! !**

وقال سعيد بن جبير -رحمه الله-:

٢٥- **"يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه". ! !**

وقال مجاهد -رحمه الله-:

٢٦- **"لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حرامًا، ويتمنون المغفرة، ويقولون: (سَيُغْفَرُ لَنَا)! ! وإن يجدوا عَرَضًا مثله يأخذوه".**

وقال قتادة -رحمه الله-:

٢٧- **"لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هفَّ لهم شيء من أمر الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالاً كان أو حرامًا".**

إنهم يتلاعبون بدين الله، فهم من جهة؛ علموا نصوص الدين، وأدركوا ما فيها من المعاني، بل صاروا مفتين فيها، لكنهم سرعان ما فتنوا فكلما لاح بهم عرض من الدنيا، قالوا: ﴿**سَيُغْفَرُ لَنَا**﴾!! وهكذا دواليك، كلما عرض لهم هذا الأدنى تهافتوا عليه من غير ورع ولا تقوى وبشكل مقزز، لأنهم يأخذونه بسفالة وخساسة، وبالمعصية، وبالمخالفة الشرعية، وبارتكاب الإثم، وكأن لسان حالهم يقول لواعظهم تلك المقالة التي قالتها اليهود لمّا ضلّوا:

٢٨- ﴿. . . **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**. . (١٨)﴾ (سورة المائدة)

لقد أصابهم الغرور، وظنوا أنهم بنفاقهم تمكنوا من السذّج فأخضعوهم للهيمنة الفاجرة التي رسموها لأنفسهم، وتلك هي خطة المشيخة المزيّفة التي أرادت أن تصنع من ممارساتها القذرة ما يسمح لها الاستمرار دائماً في تناول العرض الأدنى من غير احتياج له، مما يدل على عميق ما وصلوه من الخساسة.

نعم إن نصوص الكتاب والسنة في عقولهم، لكنها على أرض واقعهم خلاف ذلك!! لأنهم اختاروا الأدنى. فغابت عنهم رقابة الله، فنشطوا في أكاذيبهم وافتراءاتهم، وظنوا أن لا يقعوا في فخ أعمالهم، وسوء صنيعهم!!

٢٩- ﴿**أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ**. . (١٦٩)﴾ (سورة الأعراف)

لكن الدجّال منهم لمّا سقط صار عبرة لغيره كما قال تعالى:

٣٠- ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ(١٧٦)**﴾ (سورة الأعراف)

وصاحبنا في القصة "أبي القرن" سلفي في إيمانه، ربّاني في منهاجه، ثابت على الحق، قال مجاهد:

٣١- "**الربَّانيون فوق الأحبار، فالأحبار العلماء، والربَّانيون: الذين جمعوا مع العلم البصيرة بسياسة الناس**".

كان أبو القرن فوق الأحبار وكان شوكة في خاصرة كل المنافقين والمبتدعة في بني إسرائيل، كذلك الدعوة السلفية في المسجد الأقصى الآن - ولله الحمد - شوكة في خاصرة كل مبتدع ومنافق في أمة محمد ﷺ، وكان أبو القرن يتمسك بالحق الذي جاء به الأنبياء، وثبت على الحق حتى حال بينهم وبين ما يبتغون من حمل الناس على الضلالة والفساد ليحقِّقوا مآربهم ويستلذّوا بشهواتهم، فقد كان حمل الناس على ما يبتغون - في خطّتهم - أمراً سهلاً عليهم في الإجرام، قالوا: **"اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم عليه، فاتركوهم، وإن خالفوكم فاقتلوهم"**.

أمر عجيب !! من وافقهم تركوه ومن خالفهم قتلوه!! لكن ارتفع فيهم صوت ينادي قال: **"لا، بل ابعثوا إلى فلان - رجل من علمائهم.."**. كان هذا الصارخ يعلم أن الحارس الذي يستعمله الله على الحق في بني إسرائيل هو أبو القرن السلفي الصادق في دينه.

إن هذا القائل يعلم أن أبا القرن لهم بالمرصاد، رجل ثقيل في الميزان، ليس برخيص، ليس بوزن الريشة أو الذبابة أو أقل من ذلك، ليس بجبان ولا مزوِّر ولا كذّاب، ولا يدَّعي السلفية لينافق بها الناس، بل هو رجل عظيم صدق ما عاهد الله عليه. فقد جعل ولايته الخالصة لله، إنه يقبض على الحق ويقول به، إنه إمام في الجرح والتعديل، ليس عنواناً للتخذيل، لأنه لا يخشى في الله لومة لائم.

وظهر لنا في حديث عبد الله بن مسعود أن العلماء أمثال أبي القرن عندهم فقه واسع في الواقع، خلافاً لما يدّعيه المبتدعة والضلاّل الذين يتهمون علماء الطائفة المنصورة بأنهم عبارة عن مكتبات متنقلة!! فالويل لهم ما أعظم غباءهم، فكم كشفت الحوادث ضعف فقه هؤلاء عند وقوع المحن، وكم كشفت الحوادث سوء فهم هؤلاء بمجريات الأمور على أرض الواقع،

وكشفت اختلافهم في تصريف الأمور، لأنهم ركبوا العواطف وتركوا العلم النافع، فسرعان ما ظهر حمقهم وتبيّن عظيم ما هم فيه من التردّي في أوحال الجهل، فقد زجّوا بأنفسهم في أودية لا يعرفون الآن كيف يخرجون منها.

فإلى الله المشتكى من صنيع ما فعلوه ويفعلونه من الضلال والإضلال.

وهكذا فإن خطة هؤلاء الأغبياء لا تتغير عبر الزمن، فقد ظنوا بصنيعهم الخبيث أن يقتلوا الحق، وما علموا أن الله تعالى حافظ لكتابه وسنة نبيه ﷺ. قال تعالى:

٣٢- ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** (٨)﴾ (سورة الصف)

قال قائلهم: "**فإن تابعكم فلن يختلف عليكم بعده أحد، فأرسلوا إليه فدعوه**".

فماذا فعل أبو القرن حين وصله خبر استدعائه؟ سارع -رحمه الله- "**فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله، ثم أدخلها في قرن، ثم علقها في عنقه، ثم لبس عليها الثياب، ثم أتاهم**".

لقد علم -رحمه الله- أنهم أرادوا بعد محاولات هدم الدعوة السلفية في المسجد الأقصى القضاء عليها والإجهاز عليه، فما كان منه إلا أن أخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله. كتب الدين والمنهج، كتب الحق، كتب نصوص التوراة، لأنها معه، استعمله الله ليحفظها، ويموت ثابتاً عليها، فمفتاح الفرج لأمة بني إسرائيل بيده، هكذا جعله الله، كرامة له، لأنه قال الحق، وعمل بالحق، وثبت على الحق، وصدق ما عاهد الله عليه.

ومن لطف الله به أنه أدخل الورقة في قرن، ثم علّقها في عنقه. نعم هكذا كانت مشيئة الله أن يكون الحق في أعناق من أحب الله ورسوله، ثم لبس عليها الثياب.

وكان أبو القرن على حذر مما كان يبيّته له المنافقون والمبتدعة والمفسدون، لأنه كان يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم. إنهم:

حسدوا.
أكلوا الحرام، ونهبوا الناس.
زوّرا.
حرَّفوا.
ابتدعوا.
ارتشوا.
كذَبوا.
كذَّبوا الحق.
داهنوا.
نافقوا.
لفلفوا.
مكَّنوا للباطل.
تآمروا على الحق وأهله.
فعلوا الذنوب والمعاصي.
خلّفوا في دورهم ومساكنهم الآثام.
عاثوا فساداً في كل مكان.. الخ.

فعرضوا عليه الكتاب فقالوا: تؤمن بهذا؟ فأشار إلى صدره - يعني الكتاب الذي في القرن - فقال: آمنت بهذا، ومالي لا أؤمن بهذا؟ فخلوا سبيله.

واعلم أن ما ذهب إليه أبو القرن -رحمه الله- من التورية مشروع في دين الله عز وجل، والتورية: أن يقصد بعبارته مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ بالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب.

ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام في هذه الحال واستدل العلماء بجواز الكذب في هذه الحال بحديث أم كلثوم -رضي الله عنها- أنها

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

٣٣- **"ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً"**.[١]

وكان له أصحاب يغشونه فلما حضرته الوفاة أتوه، فلما نزعوا ثيابه وجدوا القرن في جوفه الكتاب، فقالوا: ألا ترون إلى قوله: آمنت بهذا ومالي لا أومن بهذا، فإنما عنى بـ(هذا) هذا الكتاب الذي في القرن قال: فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين فرقة، خير مللهم أصحاب أبي القرن.

وكثيراً في الكتاب والسنة من القصص التي تنتهي نتائج حكاياتها بظهور ما كان يخفى على كثير من الناس، فتظهر الحجج والبيّنات، ويظهر الحق، وتلك سنة الله تعالى في ابتلاءاته للناس، وهكذا يستمر الصراع بين الحق والباطل، فتوَّجب على كل عاقل أن يزيد في إيمانه، ويلحق بالحق وأهله.

فلعل الطائفة المنصورة في بيت المقدس - إن شاء الله - تنال التأييد والظهور والغلبة والبيان بظهور المهدي -عليه السلام- والله اعلم. قال تعالى:

٤٦- **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ(٩)﴾** (الصف)

وقال تعالى:

٤٧- **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا(٢٨)﴾** - (الفتح)

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى -عليه السلام- قال تعالى:

٤٨- **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ**

---

(١) - متفق عليه.

مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّه قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّه فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ (الصف)

فحين سأل عيسى ﷺ بني إسرائيل قائلاً ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من يعينني على الدعوة السلفية إلى الله، قال الحواريون - وهم أصفياؤه وخلصاؤه - ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ قال ابن كثير -رحمه الله-:

٤٩- **"نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج:**

٥٠- **"هل من رجل يُؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي".** (١)

حتى قيَّض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم، رضي الله عنهم، وأرضاهم".

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٥١- **"فأنتم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم".**

وقد كان المؤمنون في عهد النبي ﷺ حقاً أنصار الله، فقد تقدم في سورة الحشر تزكيتهم بقوله تعالى:

٥٢- **﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ**

---

(١) (رواه احمد وأصحاب السنن وصححه الحاكم).

اللَّه وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾

قال ابن كثير -رحمه الله-:

٥٣- **"فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم"**.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ أي قوَّينا الذين آمنوا وشدَّدنا قلوبهم على عدوهم الذين عادوهم لأجل إيمانهم بالله إيماناً صحيحاً على منهاج النبوَّة والسلف، لا إيمان الذين عوّجوه وخالفوا فيه منهاج النبوَّة والسلف فغلوا فيه فضلوا وأضلوا، وأرادوا أن يحملوا الناس بالمال أو بالقهر عليه كما فعلت وتفعل السلطة الدينية في المملكة العربية السعودية!!

قال البقاعي -رحمه الله-:

٥٤- **﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أي: صاروا بعد ما كانوا فيه من الذل ظاهرين، أي: عالين غالبين قاهرين في أقوالهم وأفعالهم لا يخافون أحداً إلا الله، ولا يتسخفون منه، فالتأييد تارة يكون بالعلم وتارة بالفعل"**.

وكتب

هشام بن فهمي العارف

من عقر دار المؤمنين - القدس

٢٢/ ٠٣/ ١٤٣٤هـ

وفق: ٠٣/ ٠٢/ ٢٠١٣م

(١)

اقرأ القرآن

إن أجلَّ العلوم التي يدعو القرآن إلى اكتسابها هي علوم الدين، لأنها تهدي الإنسان إلى سبيل سعادته في الدارين، فكان أول الذي نزل من قوله تعالى:

١- ﴿اقْرَأْ﴾

فافتتح سورة العلق بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم، فالعلاقة بين القراءة والكتاب، والقرآن والذكر، علاقة قوية ومنسجمة انسجاماً عظيماً. فقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ نبه بها على أعلى أسباب القرب إليه وهو العلم. ودلَّ على القرب قوله تعالى في خاتمة السورة:

٢- ﴿. . وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩)﴾

وقال ﷺ:

٣- **"أقرب ما يكون العبد إلى الله (وفي رواية: أقرب ما يكون العبد من ربِّه) وهو ساجد. . . . الحديث"**.[١]

وتكرَّر في السورة الأمر بقراءة القرآن؛ لإشعار الإنسان بأهمية قراءته، وتنبيهاً له على التزام أقوى أسباب السعادة، دلَّ عليه قوله تعالى في سورة طه:

٤- ﴿طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢)﴾

---

(١) أخرجه مسلم، وأحمد، والبزار، وغيرهم.

وللقراءة من المُصحف فضيلة عظيمة أشار إليها النبي ﷺ بقوله:

٥- **"من سرَّه أن يحبَّ الله ورسوله فليقرأ في المُصحَف"**.[١]

قال المناوي -رحمه الله-:

٦- **"فيحصل من ذلك - أي: القراءة في المصحف - زيادة ارتباط توجب زيادة المحبة"**.

وبمصاحبة القرآن ومحبته يوفّق قاريء القرآن إلى البركات والحسنات وأعظمها: التوفيق إلى منهج النبوَّة والسلف في الاعتقاد والعمل.

ولمّا كان القرآن وحياً فقد طالبنا الله عز وجل بقراءته، وأصل القراءة جمع الحروف، وقالوا: "القراءة تكون للكلمة الواحدة".

أما الترتيل فهو القراءة المفسَّرَة حرفاً حرفاً، فقوله تعالى في سورة المزمل:

٧- ﴿. . . **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤)**﴾

معناه: بيِّنْهُ وأنت تقرأ به بياناً واضحاً، لا تسرع بقراءته إسراعاً مفرطاً كهذِّ الشعر بحيث تخفي كثيراً من الحروف، فوجب الترتيل كما بيَّن النبي ﷺ، قال الإمام الألباني -رحمه الله-:

٨- **"والسُّنَّة أن يرتل القرآن ترتيلاً؛ لا هذّاً ولا عجلةً، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً، ويزيِّن القرآن بصوته، ويتغنى به في حدود الأحكام المعروفة عند أهل العلم بالتجويد، ولا يتغنى به على الألحان المبتدعة ولا على القوانين الموسيقية"**.

وصاحب القرآن من جمع بين قراءة القرآن وترتيله، ويقال له يوم القيامة:

٩- **"اقرأ وارتق، ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأ بها"**.[٢]

---

(١) أخرجه ابن شاهين، وأبو نعيم في «الحلية»، وعنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار»، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي، وأحمد، وغيرهم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً، وهو في "السلسلة الصحيحة" (٢٢٤٠).

وعن أبي هريرة مرفوعاً:

١٠- "اقرأ وارق في الدرجات، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية معك". (١)

وقال الإمام ابن كثير -رحمه الله-:

١١- "اقرأه على تمهُّل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبُّره".

وقال صاحب "التفسير الكبير":

١٢- "واعلم أنه تعالى لمَّا أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن، حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها".

إلى أن قال:

١٣- "ومن أحب شيئاً لم يمر عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب، وكمال المعرفة".

وقال صاحب "إحياء علوم الدين":

١٤- "الترتيل والتؤدة أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشدُّ تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال".

ولمّا كان القرآن الكريم هو رسالة الله وهي الرسالة العظيمة، فقد تكفَّل -سبحانه وتعالى- أن تصل إلى خلقه من الجن والإنس، لذا أخبر نبيَّه ﷺ بأنه سيُقرئه القرآن قراءة لا ينساها فقال في سورة الأعلى:

١٥- ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦)﴾

فالآية لإزالة تخوُّفِ النبي ﷺ من عدم قدرته على القيام بالدعوة إلى الله، ودلّت على معجزة من وجهين:

الأول: أنه كان أمياً، فحفَّظه لهذا الكتاب من غير دراسة وكتابة.

---

(١) أخرجه الطبراني في "الأوسط"، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٢٨٢٩).

الثاني : هذه الآية من أوائل ما نزل بمكة، وفيها إخبار عن أمر عجيب، سيقع في المستقبل، وقد وقع.

كما أشارت الآية إلى الهداية الخاصة للنبي ﷺ، بعد أن دلَّت الآية:

١٦- ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)﴾

من السورة ذاتها إلى الهداية العامة للمخلوقات. وإذا كان الخَلْقُ، والهدايةُ، والمعيشةُ، نعماً من الله على الناس جميعاً، فنعمةُ اختيار النبي ﷺ رسولاً - للقيام بمهمة تبليغ الرسالة العظيمة - نعمةٌ خاصةٌ. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

١٧- **"كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يحرك شفتيه، قال الله عز وجل:**

١٨- **﴿لاَ تُحَرِّكْ به لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ به (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾(سورة القيامة)**

قال: جمعه لك في صدرك ثم تقرؤه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قال: فاستمع له وأنصت، فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق قرأه كما أقرأه". (١)

وقوله في الحديث: **(وكان يحرِّك شفتيه)** يلزم منه تحريك اللسان، لذا جاء في رواية الإمام البخاري في كتاب التفسير:

١٩- **"كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي فكان مما يحرك به لسانه وشفتيه"**.

وهذا التحريك الغاية منه الحفظ، بدليل ما ورد في رواية الترمذي:

٢٠- **"يريد أن يحفظه"**. (٢)

وللنسائي في "الكبرى":

٢١- **"إذا نزل القرآن عليه يعجل بقراءتها ليحفظه"**.

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، والمعالجة محاولة الشيء بمشقة.

(٢) "صحيح سنن الترمذي"(٣٣٢٩).

وفي الرواية التي أخرجها الإمام البخاري:

٢٢- "يخشى أن ينفلت منه".

أي: يضيع ويفوت، ولفظه عند النسائي في "الكبرى":

٢٣- "كان يحرك لسانه مخافة أن يفلت منه".

٢٤- "وكان هذا في الابتداء. كان - عليه الصلاة والسلام - من شدَّة حرصه على أخذه من الملك ما يوحى إليه عن الله عز وجل يسابقه في التلاوة، فأمره الله تعالى أن ينصت لذلك حتى يفرغ من الوحي وتكفَّل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسر عليه تلاوته وتبليغه، وأن يبيِّنه له ويفسره ويوضحه ويوقفه على المراد منه. ولهذا قال:

٢٥- ﴿. . وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا(١١٤)﴾(سورة طه)[1]

فطالبه عز وجل بالإنصات والتدبر، وألاَّ يعجل بالقراءة، وهو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. وفي سورة الإسراء قال تعالى:

٢٦- ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (١٠٦)﴾

ومعنى (**عَلَى مُكْثٍ**) أي: على تؤدة، سئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة قراءتهما واحدة وركوعهما وسجودهما وجلوسهما أيهما أفضل؟ قال:

٢٧- "الذي قرأ البقرة، ثم قرأ الآية".[2]

وقال ابن كثير -رحمه الله- عند تفسيره الآية:

٢٨- "دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هَذْرَمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر".

---

(١) "صحيح السيرة النبوية"(ص:١١١).

(٢) أخرجه الآجري في "أخلاق أهل القرآن" (٩٠)بسند صحيح.

وعائشة -رضي الله عنها- تنقل لنا مدة ختم النبي ﷺالقرآن - فتقول:

٢٩- "كان لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث". (١)

فمن فعل أقل من ثلاث فقد خالف السّنّة، وقد علَّل النبي سبب ذلك بقوله:

٣٠- "من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه". (٢)

وفي لفظ:

٣١- "لا (وفي لفظ: لم) يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث". (٣)

وبإمكان القاري أن يختم القرآن في أربعين، فإن قوي على أكثر ففي خمس وعشرين فإن قوي على أكثر ففي عشرين، فإن قوي على أكثر ففي خمس عشرة، فإن قوي على أكثر ففي عشر، فإن قوي على أكثر ففي سبع، فإن قوي على أكثر ففي خمسة أيام، فإن قوي ففي ثلاث ولا يزد على ذلك لأن النبي ﷺ نبَّه على أنه:

٣٢- "لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث". (٤)

فالزيادة على الثلاث تمنعه الترتيل، لذا امتدح ﷺ الماهر بالقرآن فقال:

٣٣- "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة . . (الحديث)". (٥)

قال الحافظ -رحمه الله-:

٣٤- "معنى الماهر: أي الحاذق، والمراد به هنا جودة التلاوة مع حسن الحفظ، والمراد بالسفرة: الكتبة، وهم هنا الذين ينقلون من اللوح المحفوظ، فوصفوا بالكرام أي المكرمين عند الله تعالى، والبررة المطيعين المطهرين من الذنوب". (٦)

---

(١) أخرجه ابن سعد في "الطبقات"، وغيره، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٢٤٦٦).

(٢) أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بسند صحيح، وهو في "صفة الصلاة" لشيخنا الألباني.

(٣) أخرجه الدارمي، وأبو داود، وابن ماجه، والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو.

(٤) أخرجه الإمام أحمد، وانظر "السلسلة الصحيحة"(١٥١٢) و (١٥١٣).

(٥) متفق عليه، ورواه غيرهما.

(٦) "الفتح"(٥١٨/١٣).

واعلم أن القرآن يقرؤه ثلاثة كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - مرفوعاً:

٣٥- "ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر". (١)

قال الوليد بن قيس:

٣٦- "المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به".

وقوله تعالى في سورة الأعراف، والشعراء، ويونس، والمائدة:

٣٧- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ..﴾

المصدر: التلاوة، فتكون التلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضاً، وقالوا: التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعداً، وتلوت القرآن: إذا قرأته كأنك اتبعت آية في إثر آية. قال الراغب الأصفهاني:

٣٨- "التلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام، لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب، أو ما يتوهم فيه ذلك، وهي أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، فقوله تعالى:

٣٩- ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ...(٢٧)﴾(سورة الكهف)

فهذا بالقراءة، وقوله تعالى:

٤٠- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ..(١٢١)﴾(سورة البقرة)

فاتباع له بالعلم والعمل، وإنما استعمل التلاوة في قوله تعالى:

٤١- ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ..(١٠٢)﴾(سورة البقرة)

لما كان يزعم الشياطين أن ما يتلونه من كتب الله. (٢)

---

(١) أخرجه ابن حبان، والحاكم، وأحمد، وهو في "السلسلة الصحيحة" (٣٠٣٤).

(٢) "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب الأصفهاني (ص:١٦٨).

(٢)

الْقُرآنُ كلُّهُ عِلْمٌ نافِعٌ

فالسعيد -أيها المؤمنون الأفاضل- من امتثل قولَ نبيِّه فقرأ كتاب ربِّه القرآن، لقوله ﷺ:

١- **"اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول: ﴿ألم﴾ حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون"**.[١]

وفي رواية:

٢- **"من قرأ حرْفاً من كتاب الله؛ فله به حسنة، والحسنة بعشْرِ أمثالها، لا أقول: ﴿ألم﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف"**.[٢]

ثم ذكر عز وجل بعد القراءة: "القلم"، إبرازاً لمكانته وأهميته في حفظ العلم وتبليغه، وأمر [بكتابة العلم فقال:

٣- **"قيِّدوا العلم بالكتاب"**.[٣]

والمُصحف:

٤- **"روعي في تسميته قرآناً كونه متلوّاً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه"**.[٤]

---

(١) أخرجه الخطيب في "التاريخ"، والديلمي، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٦٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في "التاريخ"، والترمذي، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٣٣٢٧).

(٣) أخرجه الطبراني، والحاكم، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٢٠٢٦).

(٤) المبحث الأول من كتاب "النبأ العظيم".

إن على طالب العلم النافع أن يدرك أنه يجب عليه أن يقرأ رسالة الله تعالى، وعليه باستمرار أن يعتني بمطالعتها وفهمها حتى يزيده الله تعالى إيماناً وهدايةً.

وبناء عليه فقد تعلَّقت القراءة والكتاب بالعلم النافع، وتعلَّق العلم النافع بالتذكرة. والتذكرة هي رسالته عز وجل للبشرية جميعاً. فمن أهملها أو أعرض عنها صارت حياته عذاباً وشقاءً. لذا جاء في سورة المدثر التعجيب من الإعراض عنها فقال تعالى:

٥- ﴿فَمَا لَهُمْ عَنْ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ(٤٩)﴾

وسرعان ما كشف الله تعالى وبيَّن سبب نفورهم وإعراضهم عن التذكرة فشبَّههم بجاهل الحيوان فقال:

٦- ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)﴾

قال ابن القيم -رحمه الله-:

٧- **"وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها"**.[1]

ويبدو لي أن إعراضهم عن الإيمان بالله تعالى هو الذي قوَّى نفورهم عن القرآن، لأنهم بعد كفرهم ونفاقهم وضلالهم وجدوا القرآن ثقيلاً في معانيه، وثقيلاً في تكاليفه، وثقيلاً في وعده ووعيده، كما قال تعالى:

٨- ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)﴾(سورة المزمل)

ولو أنهم آمنوا وأقبلوا على القرآن وشرحوا صدورهم له لخفَّفه الله عليهم، فإن المؤمنين لإيمانهم وإقبالهم على كتاب ربهم بخشوع، وقراءتهم له بتفهم وتدبُّر، خفَّف الله عليهم ثقله، ووفَّقهم وأعانهم للقيام بأعبائه وتكاليفه

(١) "اعلام الموقعين"(٢١٥/١).

بإخلاص وهمَّة، كما قال الحسين بن الفضل -رحمه الله-:

٩- **"لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزيَّنة بالتوحيد"**.[١]

فالمؤمن الموحِّد لربه عز وجل هو المستفيد الأوحد من القرآن، ومعلوم لأولي الألباب أن القرآن العظيم فيه جملة كبيرة من المنافع والتذكرة والعبر والحجج، كما قال تعالى في سورة طه:

١٠- **﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩)﴾**

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

١١- **"والقرآن الكريم ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يُقبلوا عليه بالتعلم والتعليم"**.

وقال تعالى في سورة يوسف:

١٢- **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾**

وقوله عز وجل في الآية: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) كقوله في أول التنزيل:

١٣- **(وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى (٧)﴾** (سورة الضحى)

فضلاله ﷺ لم يكن شركاً، بل كان في بُعده عن هدي النبوة، فهداه الله

---

(١) نقله الشوكاني في "فتح القدير".

إليها، قال الجمهور ومنهم الحسن والضحاك:

١٤- **"ضالاً عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة، فهداك إليها"**.[١]

قال صديق حسن خان -رحمه الله-:

١٥- **"ولا يجوز أن يُفهم به عدول عن حق ووقوع في باطل، فقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان"**.

وهذه الهداية من النعم التي عدَّدها الله تعالى عليه، وهي من أعظم خيرات الدنيا من صغره إلى شبابه وكبره، ثم اصطفائه بالرسالة، ثم حفظه من الناس، ثم نصره على الأعداء، وإظهار دينه وإعلاء كلمته.

فمن أنعم الله عليه بالهدي النبوي والعلم السلفي فليحمد الله ويشكره، لأن هذه النعمة من أعظم النعم. فمن أحسن فهم القرآن وتدبَّرَه على النحو الصحيح فقد تيسَّر له الإقبال على التكاليف الربّانية بهمَّة عالية، فيؤديها بعزيمة ونشاط. قال تعالى:

١٦- **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا. (٥٢)﴾** (سورة الشورى)

فالعوائق التي تثقل الهمَّة عن فعل الصالحات، يدحرها الإيمان والإقبال على القرآن، وبالتالي فإن القرآن بعد أن يكشف الله به ظلمات الجهل والشك والشرك يجعله روحاً وبيِّنة ونوراً يستضاء به، فمن خرج من ظلمات الجهل والشرك إلى نور القرآن والتوحيد فكأنما بعث من جديد، قال ابن القيم -رحمه الله-:

١٧- **"فسماه روحاً لما يحصل به من الحياة، وجعله نوراً لما يحصل به الإشراق**

---

(١) "زاد المسير"(١٥٨/٩).

والإضاءة وهما متلازمان، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الاضاءة والاستنارة، وحيث وجدت الاستنارة والاضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل هذا الروح فهو ميت مظلم".

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

١٨- "والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير. وهو محض منَّة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك، ﴿مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم".

فنعمة القرآن تستحق منّا أن نكون الحمّادين لله على نزولها في كل لحظة، وقد علَّمنا سبحانه كيف نحمده عليها فافتتح سورة الكهف بقوله:

١٩- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا(١)﴾

وهذه النعمة العظيمة وهي القرآن لم يجعل الله فيها أدنى شيء من العِوج، فهي تذكرة كاملة وتامة في الاستقامة، وهو المعنى الذي أفاده ولخَّصه عز وجل في مطلع الآية التالية:

٢٠- ﴿قَيِّماً.. (٢)﴾

أي أن القرآن قائم مستقيم لا ميل فيه ولا زيغ، فجمع الله تعالى له بين نفي العوج واثبات الاستقامة، وسبقت الإشارة في سورة العلق -وهي أول سورة أنزلت- إلى أن الله تعالى هو الذي علَّم بالقلم، قال تعالى:

٢١- ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)﴾

قال الزجّاج -رحمه الله-:

٢٢- "أي علّم الإنسان الخط بالقلم".

فدَلَّ على كمال كرمه، بأنه علَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دوِّنت العلوم ولا قيِّدت الحِكَم، ولا ضُبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كُتُب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به.

ومن كمال كرمه عز وجل أنه يعلِّم ويرفع، وقد امتدح:

٢٣- ﴿. . . الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ. . (٤٠)﴾(سورة النمل)

وأجرى له من الكرامة ما يحفز همَّة طالب العلم، ويحثّه ليتعلم كتاب الله ويتذكَّره.

والصحابة - رضوان الله عنهم - لمّا خالط الإيمان بشاشة قلوبهم أولاً، أقبلوا على تعلّم القرآن، ثم تعلَّموا السّنّة، فرزقهم الله القصد والوسطية، فليسوا هم بالغلاة ولا بالجفاة، فعن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال:

٢٤- "أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ". (١)

وقال جندب بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه -:

٢٥- "تعلمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلّمنا القرآن، فازددنا به إيماناً، وإنكم اليوم تعلّمون القرآن قبل الإيمان". (٢)

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، وغيرهم. ومعنى "في جذر قلوب الرجال" أي: في أصلها.

(٢) أخرجه الطبراني في "الكبير"، والبيهقي في "السنن الكبرى"، و "الشعب"، وهو في "صحيح سنن ابن ماجه".

وقال عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما ـ:

٢٦- **"لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَأَحَدُنَا يُؤْتَى الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلاَلَهَا ، وَحَرَامَهَا ، وَآمِرَهَا ، وَزَاجِرَهَا ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا . كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالاً يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الإِيمَانِ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلاَ زَاجِرُهُ وَلاَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ فَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ . "** [١]

فالأمانة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– :

٢٧- **"تنزل في قلوب المؤمنين من نوره وهداه ، وهذه حسنات دينية وعلوم دينية حق نافعة في الدنيا والآخرة ، وهو الإيمان الذي هو إفضال المنعم ، وهو أفضل النعم" .** [٢]

فلم يقتصر انتفاع المؤمنين بما منَّ الله عليهم من الإيمان ، بل انتفعوا أيضاً بما منَّ عليهم من بعثة محمد ﷺ وهي أكبر النعم ، فإن القرآن نزل عليه ، فتلاه ﷺ عليهم ، وعلَّمهم القراءة ، وأمرهم بالكتابة ، ولمّا كانوا – رضوان الله عنهم – يعرفون نسبه ، وحاله ، ويتكلَّمون بلسانه ، تيسَّر انتفاعهم منه ، فصاروا به إلى كمال العلم النافع وهو العلم بالقرآن والحكمة –وهي السّنة– ، وتعلَّموا ما لم يكونوا يعلمون ، فأنقذهم الله به من الضلالة ، وعصمهم به من الهلكة ، قال تعالى :

٢٨- **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾(سورة آل عمران)**

---

(١) أخرجه الطحاوي في "شرح مشكل الآثار"(١٤٥٣)، والبيهقي في "السنن الكبرى" واللفظ له، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كذلك. والدقل: التمر الرديء اليابس.

(٢) "مجموع الفتاوى"(٣٠٢/٣).

قال ابن كثير -رحمه الله-:

٢٩- "فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهلَ الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب -أي: نزراً يسيراً- ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام؛ . . وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل -عليه السلام- فبدَّلوه وغيَّروه، وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدَّلوا كتبهم وحرفوها وغيَّروها وأوَّلوها، فبعث الله محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه - بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقرِّبهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقرِّبهم إلى النار وسخط الله. حاكم، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع. وجمَعَ له تعالى، وله الحمد والمنَّة، جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يُعطِ أحدًا من الأولين، ولا يعطيه أحدًا من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين".

واعلم أن باب تعلّم القرآن والسنة وتعليمه لطلاب العلم مهم جدّاً وفيه خير عظيم. لذا امتدح ﷺ وحثَّ، وأمر، ورغَّب لنتعلَّم القرآن ونعلِّمه، امتدح فقال:

٣٠- "خيركم (وفي رواية: خياركم) من تعلم القرآن وعلَّمه". [١]

وحثَّ وأمر فقال:

٣١- "تعلموا كتاب الله واقتنوه". [٢]

---

(١) أخرجه البخاري، وأحمد وغيرهما، وهو في "السلسلة الصحيحة"(١١٧٢) و(١١٧٣).

(٢) أخرجه أحمد، وغيره، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٣٢٨٥).

فمن تعلّمه وأخلص لله في تعلّمه صار إلى اقتنائه، والاقتناء لا يكون إلاَّ للنفيس، ولا يمكن لعاقل أن يقول: أن هناك ما هو أنفس من القرآن، فالقرآن مبارك وهو رغبة المؤمنين الصادقين وفيه يتنافسون ويتفاضلون. ورغَّب رسول الله ﷺ في تعلّمه وتعليمه فقال:

٣٢- "من علم آية من كتاب الله عز وجل، كان له ثوابها ما تليت". [١]

قال ابن رجب الحنبلي -رحمه الله-:

٣٣- "وقد كان علي بن الحسين يجلس في مجلس زيد بن أسلم فيعاتب على ذلك فيقول: إنما يجلس المرء حيث يكون له فيه نفع. أو كما قال، يشير إلى أنه ينتفع بسماع ما لم يسمعه من العلم والحكمة، وزيد بن أسلم أبوه مولى لعمر، وعلي بن الحسين سيد بني هاشم وشريفهم". [٢]

إن الله تعالى علَّم نبيَّنا ﷺ القرآن، وعلَّمه الشرائع والأحكام، وعلَّمه مسائل الإيمان، وتفاصيل دينه الإسلام فقال:

٣٣- ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾(سورة النساء)

ومن ثم تعلَّم الصحابة من نبيِّنا ﷺ، وبلَّغونا عنه الإيمان والقرآن حروفه ومعانيه، وذلك مما أوحاه اللّه إليه، قال تعالى:

٣٤- ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾(سورة الرحمن)

قال الطبري -رحمه الله-:

٣٥- "الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن، فأنعم بذلك عليكم، إذ بصَّركم به ما فيه رضا ربكم، وعرّفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم، وعلَّمكم بما أمركم به، وبتجنبكم ما يُسخطه عليكم،

---

(١) أخرجه أبو سهل القطان، وهو في "السلسلة الصحيحة"(١٣٣٥).

(٢) "اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى"(ص:١٧).

فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه".

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٣٦- **"أي: علَّم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسَّرها على عباده، وهذا أعظم منَّة ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر".**

فالله تعالى علَّم نبيه ﷺ القرآن الذى هو أعظم النعم شأناً وأرفعها مكاناً، إذ باتباع توجيهاته وإرشاداته يظفر الإنسان بالسعادة الدنيوية والآخروية، والعلم النافع الذي أتى به القرآن هو من أجلِّ العلوم وأبركها وأوسعها، فبه تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، وهي هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرُّص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين. وفي الآية الكريمة: ﴿**وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ**﴾ ردٌّ على الكافر المعاند القائل:

٣٧- ﴿**. . إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)**﴾ (سورة المدثر)

وردٌّ على المتخرّصين من الكفار المعاندين القائلين:

٣٨- ﴿**. . إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥)**﴾(سورة الفرقان)

فشتان بين من أقبل على القرآن بإيمان وتعلَّمه مخلصاً لله، ومن تأكَّل به، ومن أعرض عنه فأهمله أو جحد به، قال تعالى:

٣٩- ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. . (٢١)**﴾ (سورة الحشر)

يعني: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ لأبصَرْته على قوته وشدة صلابته وضخامته، خاضعًا ذليلاً متشققًا من خشية الله تعالى. وفي "الدر المنثور": أخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال:

٤٠- **"أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه"**.

وقال ابن كثير -رحمه الله-:

٤١- **"فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدَّع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه"؟**

وفي الآية الحث على تعلّم القرآن بعد تعلّم الإيمان. وفيها الحث على تأمل مواعظ القرآن، فلا عذر لمن ترك القرآن؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة؛ أي متشققة من خشية الله. قال القرطبي -رحمه الله-:

٤٢- **"فأين قوة القلوب من قوة الجبال؟ ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلاً منه ورحمة"**.

ولا أفصح من الموحِّد المؤمن بالله تعالى على منهاج النبوة والسلف بياناً؛ في التعبير عن علاقته بربه عز وجل وعلاقته بالقرآن، فالله تعالى أحياه وأحيا قلبه في الدنيا بكلمة التوحيد والصدق والإحسان "لا إله إلا الله" منشرحاً بها صدره، مؤمناً بها قلبه، يموت عليها فيختم له بالسعادة، وحين يُسأل عنها في البرزخ في قبره:

٤٣- **(وما علمك)؟**

وفي رواية:

٤٤- **(وما يدريك)؟**[1]

تكون إجابته ثمرة إيمانه بربِّه، وعلمه بالقرآن، وثباته في الدنيا على الحق، فينطق بها بتوفيق من الله وقائلاً:

٤٥- **"قرأت كتاب الله فآمنت به وصدَّقت"**.[2]

---

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وغيرهم، وهو في "صحيح الجامع"(١٦٧٦).

(٢) أخرجه أحمد، وأبو داود، وغيرهما وهو في "صحيح الجامع"(١٦٧٦).

(٣)

جنون البغض للقرآن والحسد لأهله

الجنون يتنافى مع النعمة العظيمة التي تبيَّن للناس أهمية العلم والتعلُّم، وتحث على القراءة والتدبُّر، فالدعوة الصحيحة تواكب التقدم والرقي وتستخدم القلم وسيلة في الكتابة والتدوين والتوثيق. وبناء عليه فإن النبي ﷺ لم يكن مُغْفِلاً شأن القلم، فالذي يدعو إلى الله تعالى على بصيرة ليس بمجنون، بل عاقل وخلوق وكلُّه شرف وعِزَّة.

لكن العداوة التي تنشأ بين أهل الحق وأهل الباطل سببها في الأصل: بغض أهل الباطل للقرآن العظيم، والنفور عن الهدى.

فوصف المغرضين للرسل والأنبياء بالجنون؛ أصله: بُغضهم وكراهيتُهم للقرآن، وبالتالي حسدهم لمن أنعم الله عليهم بنعمة القرآن والهدى. لذلك افتتح الله عز وجل السورة التي سمّاها بسورة القلم بنفي آفة الجنون عن أفضل أوليائه؛ محمد ﷺ بقوله:

١- ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)﴾

وتوعَّدهم في السورة بقوله:

٢- ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (٦)﴾

أي: ستعلم يا محمد! وسيعلم الذين اتهموك بالجنون من المجنون، ثم إن الله تعالى بيَّن في خاتمة السورة أن كراهيتهم وحسدهم هما الدافعان الرئيسان لاتهامه بالجنون، فأرادوا تنحيته وإبعاده عمّا جاءهم من الصدق بإصابته

بالعين، وهذا أول بغي لهم، وإنما حدث ذلك لمّا سمعوا الذكر قال تعالى:

٣- ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾

وبعد أن أثبت الله جل جلاله النعمة لنبيه ﷺ ونفى عنه الجنون ألزمهم في سورة التكوير بقوله:

٤- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾

فصاحبكم هو: محمد ﷺ وقد عرفتموه حقَّ المعرفة، فهو لكمال عقله وقوة إدراكه في السند العظيم الذي لا يتم وصول القرآن إلى البشرية إلاَّ به. فليس هذا القرآن المنزَّل عليه أيها المبغضون الحاسدون:

٥- ﴿. . بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)﴾

وإنما هو كلام الله تعالىً، فلزم الأخذ به وإلاَّ:

٦- ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)﴾

أين عقولكم؟ من المجنون؟ فالآيات بمثابة الحجة اللازمة، فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن. فالقرآن العظيم نعمة وحجة وتذكرة، وليس قهراً ولا جبراً، لذا ختم الله تعالى سورة التكوير بالتذكير والتهديد بقوله:

٧- ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾

فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن.

فالمؤمنون هم وحدهم المنتفعون بالذكر والهداية، فكأنه لم يوعظ به غيرهم، وإن كانوا موعوظين به جميعاً.

وأفادت الآية أن من لم يرد الاستقامة لا يمكنه الانتفاع بالقرآن.

إن اتهام أهل الباطل لأهل الحق بالجنون والبعد عن العقلانية عادة درجوا عليها من عهد نوح ﷺ، قال تعالى:

٨- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)﴾ (سورة القمر)

فليس قومك - يا محمد! - هم أول المكذِّبين، بل إن التكذيب للرسل والأنبياء حاصل من عهد أول نبي أرسل، كذَّبوا عبدنا نوحاً -عليه السلام- وشتموه واتهموه بالجنون، لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل!!

وقولهم: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: زجروه وعنَّفوه على مخالفته لهم بدعوته إلى عبادة الله عز وجل وتوحيده، قال ابن تيمية -رحمه الله-:

٩- "**فإن الأنبياء أتوا بخلاف ما يعرفونه، وهو عندهم يضر صاحبه في عقله، ويفارق به دينه الذي هم عليه**".[1]

فالعلاقة بين التكذيب والحسد والاتهام بالجنون علاقة وطيدة متكاملة، بمعنى لا يمكن أن يكون هناك حسد من غير تكذيب، أو بعبارة أخرى: لا يمكن أن يكون اتهام للصادق العاقل بالجنون من غير حسد وتكذيب، فتكذيب الحق تصاحبه أمراض سيئة غاية؛ تأتي في النهاية بنتائج وخيمة، فإذا لم يكن عند القوم استعداد لمعالجتها فقد لخصَّ الله تعالى نهاياتها بما ذكره عن نوح -عليه السلام- في سورة القمر:

١٠- ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠)﴾

فعاقبهم الله تعالى، وبيَّن لنا كيف حصل العقاب فقال:

١١- ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾

وهكذا ابتليت ثمود بنبيِّها صالح ﷺ وقصتها مشهورة عند العرب، فماذا

---

(١) "تفسير آيات أشكلت"(١/١٥١).

كان من نتائج ابتلائها؟

الجواب: التكذيب والحسد والشتم لنبيِّهم صالح ﷺ قال تعالى في السورة:

١٢- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥)﴾

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

١٣- «**والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: كثير الكذب والشَّر، فقبَّحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدَّهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع**».

فإذا سلَّموا قيادتهم لواحد - على حدِّ زعمهم - واتبعوه، فهذا يعني خيبتهم لأنهم كما يدَّعون لجمهورهم الغبي المنتفع الجبان أنهم بصنيعهم هذا يكونون في ضلال عن الصواب وجنون.

وزيادة في اقناع جمهورهم تساءلوا بتعجب وإنكار عمَّن هو الأحق من صالح -عليه السلام- بالدعوة إلى الحق وتذكير الناس بالعلم النافع، مما يؤكد لك أن ما ذهبوا إليه من الطعن بصالح -عليه السلام- سببه الحسد ودافعه التكذيب،

فردَّ الله عليهم في الآية التالية تكذيبهم وتوَّعدهم وهدَّدهم بقوله:

١٤- ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ (٢٦)﴾

وابتليت قريش كما ابتلي من سبقها من الأمم والأقوام، وابتلي من ابتلي ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الذي امتدحه الله تعالى لبيانه وفصاحته ووضوحه وقوّة حجته، فكان وهو المخصوص -عليه السلام- بكرامة النبوة؛ فتنة لأشراف الناس من الكفَّار في عصره، وكذلك العلماء، وحكَّام العدل.

لذا فإن قوماً من قريش لشدة عداوتهم للنبي ﷺ أبغضوه وحسدوه.

ولمّا كانت ألسنة الكفّار وأعمالهم متشابهة، لأن قلوبهم متشابهة، أنكر كفار

مكة أن الله تعالى خصَّ نبيَّه محمداً ﷺ بإنزال القرآن عليه وحده، ولم ينزله على أحد آخر منهم فقالوا:

١٥- ﴿أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا . . (٨)﴾ (سورة ص)

قال ابن كثير -رحمه الله-:

١٦- «**يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم**".

وقال الشنقيطي -رحمه الله-:

١٧- "**معناه إنكارهم، أن يخصه الله بإنزال الوحي من بينهم، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه، لكثرة ماله، وجاهه وشرفه فيهم**".

وقال "صاحب الكشّاف":

١٨- "**وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوّة من بينهم**".

وفعل (ألقي) في استفهام قوم صالح، غير فعل (أنزل) في استفهام قريش، فالأول فيه اتهام الله عز وجل بالعشوائية وخلو الحكمة، وذلك بإلقاء الذكر على صالح - عليه السلام-، وكان من الحكمة - بزعمهم - أن يكون الإنزال على غير صالح، لأن صالحاً - بنظرهم - كَذاب أشر، وأن فيهم من هو أحق.

وتأخر متعلق الفعل ﴿عَلَيْهِ﴾ على فاعله ﴿الذِّكْرُ﴾ إشارة إلى ذمِّ الله تعالى على العشوائية حين أنزل الذكر، وبالتالي فإن النتيجة - في نظرهم المعتوه - كانت قيام صالح بمهمة النبوَّة.

أما الثاني ففيه اتهام الله بالظلم، لأنه خصَّ إنزال الذكر على محمد -عليه السلام- دون غيره.

وتقدم متعلق الفعل ﴿عَلَيْهِ﴾ على فاعله ﴿الذِّكْرُ﴾ إشارة إلى أن إنكارهم لمحمد كان مقدَّماً على إنكارهم القرآن، وردَّ الله عليهم في الآية بقوله:

١٩- ﴿. . بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)﴾

فأضرب عن أقوالهم وأثبت تكذيبهم القرآن، وبيَّن أنهم لم يعتبروا بما حلَّ بقوم نوح ومن بعدهم ممن كذّبوا الرسل فحقَّ عقاب، واغترّوا بطول الإمهال.

وفي التعبير بقوله: ﴿لَمَّا﴾ إشارة إلى قرب حصول العذاب. فإنهم قالوا الذي قالوه حيث كانوا لم يصبهم من عقاب الله شيء، فكيف بهم إذا نزل بهم العذاب؟

وقد سجَّل فرعون - عند ابتلائه - الموقف ذاته حيال موسى ﷺ عندما دعاهم إلى الحق، وقصَّته مشهورة عند أهل الكتاب، فماذا كان فرعون قائلاً لقومه مستغلاً خضوعهم وخنوعهم له؟:

٢٠- ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ (سورة الشعراء)

أشارت الآية الكريمة إلى قرار أحمق يتخذه من صعقته الحجة، وهو اللجوء إلى اتهام أهل الحق الذين على منهاج العدل والإنصاف، على منهاج النبوة والسلف، بالجنون؛ ثم يمشي الأحمق وأعوانه بين الناس بالنميمة والإشاعة.

هذه عادة السفهاء الضالّين، وذريعة يلجأ إليها المكذِّبون بدين رب العالمين، ولام المزحلقة في قوله: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ إعلام المفلسين من الحجج والبراهين، وخديعة الحاسدين لإحباط دعوة الصادقين، ليبدأ بعدها جمهورهم اللعين ببث حقدهم الدفين.

فماذا ردَّ موسى -عليه السلام- بعد ان سمع منهم الرفض والصدَّ والطعن؟

٢١- ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾

أعرض موسى ﷺ عنهم واستمر بدعوته، وبيَّن لهم أن الذي يستحق العبادة والتأليه والخضوع والطاعة هو الله تبارك وتعالى، رب المشرق والمغرب وما بينهما.

فإن كنتم آمنتم أن الله هو وحده المتصف بصفات الربوبية، فعليكم أن

تؤمنوا أنه هو وحده الذي يستحق الألوهية، فلماذا تصرفون التأليه والعبادة والخضوع لغيره إن كنتم تعقلون؟ فإن الجنون كلّ الجنون أن تؤمنوا بربوبية الله ثم تكفروا بألوهيته! كما قال تعالى في سورة يوسف:

٢٢- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)﴾

فإن كنت أنا بزعمكم المجنون! أيها المبغضون الحاسدون الضالّون، فكونوا أنتم العقلاء. فإن اتخاذكم لفرعون إلهاً تطيعونه من دون الله هو الذي جعل شرككم - بزعمكم - الدين الحسن، وتوحيد الله وعبادته بحق - بزعمكم - هو الجنون بعينه! ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

٢٣- "فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية، وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق. - فلما ذكر - أولاً - أن من أيقن بشيء فهو موقن به، واليقين بشيء هو من لوازم العقل، بيَّن - ثانيًا - أن الإقرار به من لوازم العقل.

ولكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه، فإن لم يعمل به صاحبه قيل: إنه ليس له عقل. ويقال - أيضًا - لمن لم يتبع ما أيقن به: إنه ليس له يقين. فإن اليقين - أيضًا - يراد به العلم المستقر في القلب ويراد به العمل بهذا العلم. فلا يطلق: الموقن إلا على من استقر في قلبه العلم والعمل.

وقوم فرعون لم يكن عندهم اتباع لما عرفوه، فلم يكن لهم عقل ولا يقين. وكلام موسى يقتضي الأمرين: إن كان لك يقين فقد عرفته، وإن كان لك عقل فقد عرفته. وإن ادعيت أنه لا يقين لك ولا عقل لك، فكذلك قومك، فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان. ومن يكون هكذا، لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية. مع أن هذا باطل منكم، فإنكم موقنون به». [١]

(١) "مجموع الفتاوى"(٤/٣٣٣)

إن كراهية كفار مكة للإيمان والقرآن، وحسدهم للمؤمنين وحملة القرآن بلغ بهم مبلغاً أحمقاً، فخاطبوا النبي ﷺ وجهاً لوجه بكل وقاحة وجراءة وصَلَف:

٢٤- ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾ (سورة الحجر)

إنهم معترفون بنزول القرآن، فكان استعمالهم لام المزحلقة في قولهم ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ رفعاً لمعنويات جمهورهم المريض، وتشجيعاً لهم، فقد بلغ الاستهزاء بهم والشتيمة مبلغ الوقاحة؛ فانتقلوا بحماقتهم بهذا الاتهام له من التداول فيما بينهم بصمت؛ إلى الإعلان والصراخ في وجهه!

ثم في سورة الصافات كشف الله لنا عن مرض آخر فيهم وهو الاستكبار قال تعالى:

٢٥- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)﴾

استكبروا بعد أن كذّبوا، فأضاف الله تعالى إلى أخلاقهم وأفعالهم الاستكبار، وبيَّن أنهم لا يزالون لاستكبارهم مستمرّين على استهزائهم بالحق، وعنادهم على الشرك، فلا يمكنهم التنازل عنها لشاعر مجنون - على حدِّ زعمهم - ولا زالت لام المزحلقة تعمل عملها عندهم، فإنهم قالوا هنا ﴿لِشَاعِرٍ﴾ والغرض زحلقت الجاهل العنيد بالدعاية المغرضة ليجد نفسه بعد فخهم المنصوب في بئر الظلام لا يبصر شيئاً من النور.

وإنما قالوا شاعر وهم يعلمون أنه ليس بشاعر ولا يعرف الشعر والشعراء، لكنهم أرادوا ان يرموه بالكذب:

٢٦- «**فإن الشعر يعبر به عن الكذب، والشاعر: الكاذب، حتى سمَّى قوم**

الأدلة الكاذبة: الشعرية، . . ولكون الشعر مقر الكذب قيل: أحسنُ الشعر أكذبه". (١)

فردَّ الله عليهم وكذَّبهم بأن ضرب على استكبارهم وشركهم وأثبت أن نبيَّه محمداً ﷺ جاء بالحق وصدَّق المرسلين فقال في الآية التالية:

٢٧- **﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾**

ثم في سورة «المؤمنون» بيَّن الله تعالى أن استكبارهم زادهم بغضاً وكراهية للحق فقال:

٢٨- **﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)﴾**

أيكون سبب إصرارهم على استكبارهم اتهامهم للرسول ﷺ بالجنون؟ كلاَّ، فإنهم يعلمون حق العلم أن الرسول ﷺ بعد أربعين عاماً من صحبته لهم، بعثه الله وهو أكمل الناس عقلاً، وأعظمهم خُلُقاً، وأصدقهم لساناً ولهجةً، جواد كريم، شجاع أمين، فلِمَ يتَّهمونه بالجنون؟

لذا ضرب الله على اتهامهم، وبيَّن أن الخاصة اللئيمة وقد لحقتها الأكثرية من أهل الباطل تبغض الحق وتكرهه، أما القلة منهم فهي وإن لم تكره الحق لمعرفتها به، إلا أن سكوتها لجبنها لم يسعفها؛ فبقيت في دائرة الباطل.

ونجا قلة القلة، وهم أهل الحق، لأنهم عرفوه وأحبوه وأخلصوا لله فيه، وانتصروا له، ودعوا إليه، وجاهدوا فيه، فكانوا بفضل الله على النعمة، على القرآن بمنهاج النبوَّة والسلف.

وظهر في الآية تكامل العلاقة بين التكذيب والطعن، ابتداء من حسدهم واتهامهم لأهل الحق بالجنون، وانتهاء ببيان الدافع للحسد وهو: التكذيب

---

(١) "المفردات في غريب القرآن" (ص:٢٦٢).

والاستكبار بغضاً وكراهية للحق. قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٢٩- "وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله، وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فكون الرسول أتى بالحق وكونهم كارهين للحق بالأصل هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكاً ولا تكذيباً للرسول".

(٤)

القرآن ذكر وتذكرة

لمّا كان التذكير ضرورة وحاجة للناس في كل وقت، فقد سمّى الله تعالى القرآن تذكرة فقال:

١- ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤)﴾ (سورة المدثر)

أي: القرآن تذكرة، فليس الأمر كما يدَّعي المشركون أنه سحر يؤثر، أو أنه قول البشر، أو أنه إفك افتراه محمد ﷺ، أو أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، إنما القرآن حقّاً تذكرةٌ بليغةٌ كافيةٌ من الله لخلقه.

وفي قوله تعالى في سورة القلم:

٢- ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾

إبطال لنعتهم النبي ﷺ بالجنون. فالقرآن كلام الله عز وجل، فهو رفيع القدر، فلا يليق لأحد أن يصفه بغير ما وصفه الله تعالى، كما لا يليق لأحد أن يصف من نُزِّل عليه الذكر بالجنون. كما أنه لا يليق لأحد أن يشطب من ذاكرته القرآن والعمل بالقرآن، لأن القرآن ذكر للعالمين حتى آخر ممتحَن مكلَّف في الحياة الدنيا، فيجب على جميع الناس أن يؤمنوا به ويتفهَّموا معانيه، ويتذكَّروه عند كل لحظة تدعوهم للتذكر. وإنما أطلق على القرآن اسم «الذكر» لما فيه من هداية للضال، وتذكير للناسي، وتنبيه للغافل.

وأقسم الله تعالى بالقرآن في مطلع سورة «ق» ووصفه بالمجيد فقال:

٣- ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١)﴾

والقرآن بمعنى المقروء من قول العرب: قرأت الشيء إذا أظهرته وأبرزته، وبمعنى القارىء أي: الجامع لأن الله جمع فيه جميع ما في الكتب المنزلة.
ووصف الله تعالى القرآن بـ ﴿الْمَجِيدِ﴾: لسعته وكرمه وعظيم فائدته.
وأقسم به أيضاً في مطلع سورة «ص» فقال:

٤- ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)﴾

فمن سعته وكرمه أنه ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ فهو للتذكير والوعظ، يذكِّر العباد بما فيه نفعهم في المعاش والمعاد، في الدنيا والآخرة. ويذكِّرهم بما يحتاجون إليه من العلوم، والأحكام، والقصص.
أقسم الله تعالى بالقرآن الكريم لعظيم نفعه وكثرة خيراته وغزارة علمه.
وأقسم به لأنه في غاية البيان والفصاحة، فمن تأمَّله وتدبَّره وتذكَّره صارت الأمور إليه في غاية الوضوح. لذلك دعا الله تعالى المسلمين للاستمساك به، وامتدح من استمسك به فقال:

٥- ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ. .(١٧٠)﴾ (سورة الأعراف)

فهؤلاء لم يحرِّفوه ولم يكتموه ولم يتأكَّلوا به. بل تمسَّكوا به علماً وعملاً، لذا تنعَّموا ببركاته وخيراته.
والمقسم عليه في السورتين محذوف، تقديره: أقسم بالقرآن العظيم ذي المجد وذي الذكر، أنك أيها الرسول ﷺ صادق، وأن رسالتك حق، وأن الكفّار كذبة في إنكارهم رسالتك، وكذبة في إنكارهم البعث، وكذبة في إنكارهم أن المعبود بحق هو الله عز وجل.
ولمَّا كان القرآن تذكرة، فالتذكرة هي الموعظة التي تلين لها القُلوب؛ فتمتثل أمر الله، وتجتنب نهيه. فإذا صار المنتفع بالقرآن إلى حظه من التذكرة والوعظ، صار إلى ما خصَّه الله تعالى من الشفاء والهدى والرحمة كما قال:

٦- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى

﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ (سورة يونس)

والذين يتَّهمون الأنبياء والرسل ومن تبعهم بإحسان بالجنون، ويتهمونهم بالكذب، لا يؤتمنون؛ لأنهم خائنون، بل إنهم ينافقون، ويتلاعبون، وأخطر ما ينافقون به الدين، وأخطر ما يتلاعبون به القرآن.

ولو تأملنا نجوم التنزيل؛ لوجدنا في نهاية كل سلسلة من كِبْر كبراء مشركي مكة؛ تعبيرهم عن شديد استيائهم وبغضهم أن يكون القرآن ذكراً للعالمين، وأن يكون محمد ﷺ رسولاً للناس أجمعين، لذا فإنهم واجهوه بالشتيمة!

ففي سورة «الحجر» بلغت الوقاحة بهم مبلغاً؛ بحيث انتقلوا في اتهامهم النبي ﷺ بالجنون من التستر إلى المواجهة ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦)﴾ فردَّ الله عليهم إنكارهم واستهزاءهم بقوله في السورة ذاتها:

٧- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾

فأكدَّ أنه هو المنزِّل القرآن بالقطع، فإنكارهم عليه بقولهم: يا أيها الذي ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ بني للمفعول - أي بزعمه.. فكان الردُّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ أي: بما لنا من العظمة نحن نزّلنا الذكر. و﴿نَحْنُ﴾ للتعظيم ولا يراد بها التعدد، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: وبما لنا من العظمة نحن للقرآن حافظون.

فهو سبحانه ليس المتكفِّل بتنزيل القرآن لينتفع المؤمنون به فحسب، بل أيضاً متكفّل بحفظه، فقطع بذلك رجاءهم وأبطل كيدهم ومكرهم من أن تمتدَّ أيديهم إلى كتابه العزيز بأي نوع من أنواع التلاعب. قال الشنقيطي -رحمه الله-:

٨- «**بيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزَّل القرآن العظيم، وأنه حافظ له من أن يزاد فيه أو ينقص أو يتغير منه شيء أو يبدَّل**».

ومقصود حفظ الله لكتابه العزيز بقاء الهداية والحجة، كما قال العلاّمة المعلّمي اليماني -رحمه الله-:

٩- «**ولا شبهة أنه ليس المراد حفظ ألفاظه فقط، وإنما المقصود بحفظه بقاء الحجة قائمة، والهداية دائمة إلى قيام الساعة**». [١]

فأهل الكتاب جعل الله تعالى حفظ كتبهم إليهم فخانوها ولم يحفظوها، بل تلاعبوا بها فبدَّلوا وحرَّفوا وغيَّروا حتى أضاعوها، أما القرآن فإن الله تعالى لم يكل حفظه إلى أحد حتى يمكنه تضييعه، فتولَّى حفظه بنفسه - الكريمة المقدسَّة - من التبديل والتحريف والتغيير، وفي هذا بشارة للمؤمنين، وإغاظة للمشركين.

بشارة للمؤمنين حتى يكون الدين كلُّه لله، وإغاظة للمشركين لأن القرآن لا يزال يتحدّى طوائف الضلاَل بأنواعهم، فهو كلام الله المهيمن على كلِّ الكتب.

فلو كان هذا القرآن من عند غير الله كما يدَّعي المشركون لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، لأنه يكون قد تعرَّض للتغيير والتبديل، لكن نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ محفوظاً من الشياطين فلا يزيدون عليه ولا ينقصون، بخلاف الكتب المتقدِّمة فإن العلماء السوء والرهبان السوء لّما خانوا الأمانة امتدَّت أيديهم إلى كتب الله فعاثوا بكلماتها ومعانيها فساداً!! تماماً كما خان ويخون العلماء السوء في أمة محمد ﷺ لولا حفظ الله تعالى له.

وسمّى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه باباً هو:

١٠- «**باب النهي عن الرواية عن الضعفاء، والاحتياط في تحمّلها**».

ذكر فيه عدداً من الأحاديث بيَّن من خلالها تحذير النبي ﷺ من أناس في آخر الزمان يحدِّثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، وفيها عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -:

---

(١) "القائد إلى تصحيح العقائد"(ص:١٧٨).

١١- **"إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَتَمَثَّلُ فِى صُورَةِ الرَّجُلِ فَيَأْتِى الْقَوْمَ فَيُحَدِّثُهُمْ بِالْحَدِيثِ مِنَ الْكَذِبِ»**.

وفيها عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

١٢- **«إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان، يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآناً"**.

وكلا الحديثين له حكم المرفوع، وقال القاضي عياض -رحمه الله-:

١٣- **"وقد رام الروافض والملحدة ذلك فما يمكن لهم، ولا يصح أن يقبل مسلم من أحدٍ قرآناً يدَّعيه مما ليس بين الدَّفتين"**.[١]

وذكر الإمام مسلم -رحمه الله- في الباب ذاته عن بعض أصحاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فأشاروا إلى ما أفسدته الروافض في علمه ودَعوا عليهم قائلين:

١٤- **"قاتلهم الله؛ أيُّ علم أفسدوا"**.

فإنهم تلاعبوا بحديثهً، وأضافوا إليه من الروايات المفتعلة، وتقوَّلوا من الأباطيل، حتى خلطوا الحق بالباطل. وهكذا تفعل طوائف المبتدعة، فإنها أدخلت في الدين ما ليس منه، وتأولت القرآن بما تهوى.

لكن كتاب الله تعالى عزيز مصون من التبديل والتحريف، إذ لا يمكن لعلماء السوء والمبتدعة أن تمتدَّ أيديهم إليه من أي جهة كانت لأنه كما قال تعالى:

١٥- ﴿. . . **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ** . . **(٤٢)**﴾ (سورة فصلت)

قال قتادة -رحمه الله-:

١٦- **«لا يقدر الشيطان أن يبطل منه حقاً، ولا يحق فيه باطلاً»**.[٢]

---

(١) "إكمال المعلم بفوائد مسلم"(١/١١٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" عن معمر عنه.

ووصف الله تعالى لكتابه بالعزيز لأنه قوي غالب بحججه وبراهينه، والله تعالى استعمل ويستعمل أهل هدايته وحجته في حفظ القرآن، فالطائفة المنصورة في أمة محمد ﷺ لا تزال - بفضل الله تعالى - ظاهرة على الحق، باقية على عملها في الدفاع عن كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ، قال عبد الله بن المبارك -رحمه الله-:

١٧- "لو هَمَّ رجلٌ في السَّحرِ أنْ يكذبَ في الحديث، لأصبحَ والناسُ يقولون فلانٌ كذّابٌ. وروينا عنه أنّهُ قيلِ له: هذه الأحاديثُ المصنوعةُ، فقال: تعيشُ لها الجَهابِذةُ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾» [1].

ولمّا سئل العلماء الجهابذة عن الطائفة المنصورة من هم؟ قالوا: «هم أهل الحديث». فاقتصروا على ذلك، ولم يقولوا: هم أهل القرآن، لأن القرآن لا يمكن فهمه بغير من عرَّفهم النبي ﷺ على أنهم الظاهرون على الحق، فتعريفهم بأهل الحديث أقوى وأصح، وإلاَّ فإن الطائفة المنصورة في نتيجة التحقيق: هم أهل القرآن، أهل الوحي من غير منازع، لأنهم يعلمون ما جاء من عند الله، كما قال النبي ﷺ:

١٨- «إن لله أهلين من الناس".

قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال:

١٩- "هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته". [2]

قال محمد مرتضى الزبيدي -رحمه الله-:

٢٠- "المراد بأهل القرآن: حفظته الملازمون له بالتلاوة، العاملون بما فيه، أي أن هؤلاء أولياء الله وخاصّته، أي المختصون به اختصاص أهل الإنسان به،

(١) "شرح التبصرة والتذكرة" للعراقي(ص:٩٦).

(٢) أخرجه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم، عن أنس - رضي الله عنه - وهو في "صحيح الجامع"(٢١٦٥).

سمّوا بذلك تعظيماً لهم كما يُقال: بيت الله".[1]

وبحفّاظ الأمة أنجز الله تعالى حسن موعوده، كما قال ﷺ:

٢١- "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".[2]

وبناء عليه فإن الله تعالى وجَّه الناس إليهم لأخذ الحكم الشرعي منهم في مسائلهم كونهم أقدر من غيرهم لأنهم: عدول، فقهاء في دينهم، ويحمون الشريعة من تحريف غلاة الدين، ويحمونها فيدفعون عنها الخلط والتزوير والخطأ، ويحمونها من الجهلاء الذين يذهبون إلى التأويلات الفاسدة والمعاني الضعيفة. لذا قال في سورة النحل:

٢٢- ﴿. . . فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾

فهم أهل القرآن والعلم، ولولا أن أخبارهم صحيحة تفيد العلم لم يأمر بسؤالهم، واعلم أن خبر الواحد الثقة منهم يفيد العلم، فلو كان واحداً لكان سؤاله وجوابه كافياً، فمن كان يجهل الحكم فيجب عليه سؤال هؤلاء العلماء أو واحدٍ منهم ليعمل بما أفتوه به. قال الشيخ العلاّمة السعدي -رحمه الله-:

٢٣- «وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه».

---

(١) "اتحاف السادة المتقين"(٤/٤٦٥).

(٢) أخرجه البيهقي في "السنن الكبرى"(١٠/٢٠٩)، والبزار كما في "كشف الأستار"، والخطيب البغدادي في "شرف أصحاب الحديث"، وابن وضاح في "البدع والنهي عنها"، وابن عدي في "الكامل"، وهو في "مشكاة المصابيح"(٢٤٨)، وذكره ابن كيكلدي العلائي في كتابه "بغية الملتمس" وصححه لتعدد طرقه، وسئل الإمام أحمد عن هذا الحديث، فقيل كأنه كلام موضوع؟! قال: لا، هو صحيح، سمعته من غير واحد.

(٥)

القرآن العظيم تذكرة خصَّ الله بنفعها المتقين

حين يوصف القرآن بالتذكرة؛ فالتذكرة لشيء كان موجوداً، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، والبشرية عاهدت ربَّها وواثقته بميثاق الإيمان والطاعة والعبادة وهم في أصلاب آبائهم، لكن من تمام رحمة الله عند ابتلائهم أنه ذكَّرهم بالعهد بعد أن خلقهم وبعثهم من أصلاب آبائهم.

وحين يوصف القرآن بأنه ذكر للعالمين، فعلينا أن نفهم أن الواجب بالنسبة إليه أن نعلمه أولاً، ثم نذكر ما فيه دواماً؛ لأن الله عز وجل يطالبنا باعتقاد عقائده دواماً، والتزام أخلاقه دواماً، وبالعمل بشرائعه دواماً، وهذا لا يكون إلا بذكره دواماً، عند كل مناسبة تستدعي ذكره.

واعلم أن كل تذكير بالقرآن يُذكَّر به الناس يحصل به نفع بالجملة، ومن هذا النفع قيام الحجة على المخالف، فلا يجوز له أن يخون العهد، ويضرب بالميثاق عرض الحائط، ويعمل بعمل من جاءته التذكرة لينتفع لكنَّه كما قال تعالى في سورة المدَّثر:

١- ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠)**﴾

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

٢- «**والتذكير المطلق العام ينفع، فإن من الناس من يتذكر فينتفع به، والآخر تقوم**

عليه الحجة، ويستحق العذاب على ذلك فيكون عبرة لغيره فيحصل بتذكيره نفع أيضاً، ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره، فتحصل بالذكرى منفعة.

فكل تذكير ذكَّر به النبي ﷺ المشركين حصل به نفع في الجملة، وإن كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه، واعتبروا به، وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة».

والآية الكريمة من قوله عز وجل:

٣- ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩)﴾ (سورة الأعلى)

أطلقت التذكير، وأطلقت النفع، لكنها اشترطت التذكير عند ظنِّ الفائدة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

٤- «فقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى﴾ لا يمنع كون الكافر يُبَلَّغُ القرآنَ؛ لأنه لم يخصَّ قوماً دون قوم. لكن قال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ وهذا مطلق بتذكير كل أحد.

وقوله: ﴿إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى﴾ لم يقل: (إن نفعت كل أحد)، بل أطلق النفع، فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع». [1]

وقال ابن كثير -رحمه الله-:

٥- "ذكِّر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله".

وجاء في "أضواء البيان":

٦- "ويفهم من هذه الآية الكريمة أن التذكير لا يطلب إلا عند مظنَّة نفعه بدليل (إنْ) الشرطية، وأنه ﷺ بعد أن يكرر الذكرى تكريراً تقوم به حجة الله على خلقه، مأمور بالتذكير عند ظن الفائدة، أما إذا علم الفائدة فلا يؤمر بشيء هو عالم

(١) "مجموع الفتاوى" (١٦/١٦٢).

أنه لا فائدة فيه؛ لأن العاقل لا يسعى إلى ما لا فائدة فيه.

وبيان ذلك: أنه تارة يعلمه بإعلام الله به كما وقع لأبي لهب حيث قال الله -في سورة «المسد»- ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(٣)وَامْرَأَتُهُ . .)﴾ الآية.

فأبو لهب هذا وامرأته لا تنفع فيهما الذكرى؛ لأن القرآن نزل بأنهما من أهل النار، بعد تكرار التذكير لهما تكراراً تقوم عليهما به الحجة، فلا يلزم النبي ﷺ علمه بذلك أن يذكِّرهما بشيء؛ لقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى﴾.

وتارة يعلم ذلك بقرينة الحال، بحيث يُبلِّغُ على أكمل وجه، ويأتي بالمعجزات الواضحة، فيعلم أن بعض الأشخاص عالم بصحة نبوته، وأنه مصر على الكفر؛ عناداً ولجاجاً، فمثل هذا لا يجب تكرير الذكرى له - دائماً - بعد أن تكرر عليه تكريراً تلزمه به الحجة.

وحاصل إيضاح هذا الجواب أن الذكرى تشتمل على ثلاث حكم:

الأول: خروج فاعلها من عهدة الأمر بها.

الثاني: رجاء النفع لمن يوعظ بها.

الثالث: إقامة الحجة على الخلق.

فالنبي ﷺ إذا كرر الذكرى حصلت الحكمة الأولى والثالثة، فإن كان في الثانية طمع واستمرَّ على التذكير، وإلاَّ لم يكلف بالدوام، والعلم عند الله -تعالى-".

وحاصله أن القرآن كما قال النبي ﷺ:

٧- "حجة لك أو عليك". [1]

قال النووي -رحمه الله-:

٨- "أَيْ: تَنْتَفِع بِهِ إِنْ تَلَوْته وَعَمِلْتَ بِهِ، وَإِلاَّ فَهُوَ حُجَّة عَلَيْك".

---

(١) أخرجه مسلم، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم.

فالواجب على من خصَّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته لينتفع به، ومن لم يتلُه بحق لا ينتفع به، وبالتالي فإن القرآن يكون حجة عليه. كما قال الحسن البصري -رحمه الله-:

٩- **"القرآن تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر»**.[١]

ونقل القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» قول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى﴾ قال:

١٠- **"تنفع أوليائي، ولا تنفع أعدائي»**.

إن الله عز وجل إذا أراد أن يمكن للدعوة على منهاج النبوة والسلف، وأن يمكِّن للمذكِّر الواعظ وليِّه فإنه سبحانه وتعالى يُسَخِّرُ لها وله الأسبابَ، ومنها قيام المذكِّر بالتذكير على بصيرة، ومعلوم أن الواعظ المذكِّر بالقرآن لا بدَّ أن يكون على دراية وفقه بنصوص الوحي، وعلى ضوء التذكير والوعظ العلمي الصحيح نتحصَّل على نتيجة الوعظ وهي: كما قال تعالى:

١١- **﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى(١١)﴾**

إشارة إلى أن أقرب الناس إلى التدبُّر والاعتبار، والاتعاظ والانزجار، من يراقب الله ويخافه، أو بمعنى آخر: سينتفع بتذكيرك - أيها المذكِّر الواعظ - من يخشى الله تعالى ويخاف عذابه، ويرجو ثوابه.

فكأنه لم يعِظْ به غيره وإن كانوا موعوظينَ به جميعاً. ومعلوم أن التذكير والوعظ بالقرآن ينفع، فكان من حِكَم إنزال القرآن: أنه تذكرة لمن يخشى، فيُسعد بتذكُّره المؤمن كما يدل له الحديث الصحيح:

١٢- **"مَن يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**.[٢]

---

(١) نقلها القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن".

(٢) متفق عليه، وأخرجه غيرهما.

ويشقى بتجنّبه الكافر وهو:

١٣- ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢)﴾

والأشقى يكلِّف نفسَه وفطرته الأولى المستقيمة تجنب الذكرى التي يشاء الله تعالى تذكيره بها على لسان أشرف الخلائق وأعظمهم صلةً بالخالق. لكنه لكفره وضلاله يعالج نفسه على العوج. فهو شديد الشقاوة والتعاسة، قال قتادة -رحمه الله-:

١٤- «فلا والله لا يتنكب عبد هذا الذكر؛ زهداً فيه، وبغضاً لأهله، إلا شَقِيٌّ بَيِّنُ الشقاء». [١]

والتذكير ضرورة فرضها الله تعالى على من أنعم عليه بالهدى، كما قال تعالى في سورة الضحى:

١٥- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١)﴾

وفسِّرت النعمة هنا بالقرآن، قاله مجاهد، ومعلوم أن القرآن أعظم ما أنعم الله به على عبده محمد ﷺ والتحديث به: تبليغه وتفسيره ليعمل الناس به. كما قال ابن القيم -رحمه الله-:

١٦- "إن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة". [٢]

فمن آمن بالقرآن وعمل بما فيه فإنه في نعمة عظيمة، وتصحبه في ابتلاءاته كما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حيث ابتدأ رسالته من سجنه بهذه الآية قائلاً:

١٧- "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وَالَّذِي أُعَرِّفُ بِهِ الْجَمَاعَةَ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَأَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ الظَّاهِرَةَ

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري بإسناد حسن.

(٢) "مدارج السالكين" (٢/٢٤٨).

وَالْبَاطِنَةَ؛ فَإِنِّي - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ - فِي نِعَمٍ مِنْ اللَّهِ مَا رَأَيْت مِثْلَهَا فِي عُمْرِي كُلِّهِ".

إلى ان قال -رحمه الله-:

١٨- **"فَإِنَّ اللَّذَّةَ وَالْفَرْحَةَ وَالسُّرُورَ وَطِيبَ الْوَقْتِ وَالنَّعِيمَ الَّذِي لا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ إنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ".** (١)

وقد تقدم من قوله تعالى في سورة القلم ما يشير إلى هذه النعمة: ﴿**مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ ﴿**وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾ قال ابن كثير -رحمه الله-:

١٩- **"بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم".**

والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر، فكما أنعم الله عليك، أنعم على غيرك بما أنعم الله عليك، وكما سخَّر لك من الناس من يعينك أو يسد فقرك، فأنت بدورك من باب الشكر لله قم بسد فقر غيرك، وأعن المحتاج لمعونتك. وكما أنعم الله عليك بالدعوة السلفية لأنها دعوة الحق فأصبحت بصيراً بدين الله تعالى، قم أنت بدعوة الناس إليها لأنها المخرج من الظلمات إلى النور، وكما أنعم الله تعالى عليك بفهم كلام الله تعالى وفهم كلام نبيه المصطفى ﷺ قم بالعمل وعلِّم الناس الخير، واحرص على الجماعة واعلم أن الفرقة عذاب. فعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - مرفوعاً:

٢٠- **"التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة والفرقة عذاب".** (٢)

والأمر في قوله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يفيد طلب المداومة على التذكير بدين الله الحق، فالتذكير مطلق، بمعنى ذكِّر واستمر على تذكير الناس، ويدخل

---

(١) "مجموع الفتاوى"(٣١/٢٨).
(٢) "صحيح الجامع"(٣٠١٤)، والكفر هنا بمعنى: "كفر النعمة".

في التذكير المطلق كل من جاءك يطلب التذكرة فلا تتركه وتلتفت إلى غيره تظن أنه بالتذكرة أولى، كما عاتب الله تعالى نبيَّه محمد ﷺ بقوله:

٢١- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)﴾ (سورة عبس)

لكن لمّا ظهر اشتراط النفع في التذكير، ظهر معه التنبيه إلى الأفضل وهو: أن يكون التذكير لمن ينتفع، أما إذا تكرر التذكير لشخص ما أو جماعة ما إلى أن توصَّل المذكِّر الواعظ بحكمته أن تذكرته لا تنفع؛ فإنه يتوقف لتبقى تذكرته مقتصرة بعد إلزام الحجَّة على الذين يرغبون في الانتفاع، كما قال تعالى في سورة "ق":

٢٢- ﴿. . . فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾

فهؤلاء وحدهم المنتفعون بالقرآن. فالناس بالتذكرة ينقسمون إلى سعيدٍ منتفع، وشقيٍّ غير منتفع، فالشقي من أهمل التذكرة ولم يرد الانتفاع بها، أما السعيد فقد خصَّه الله تعالى بالتذكرة لأنه أراد الانتفاع بها، ومن الصور المهمة التي تبيِّن أثر انتفاع العبد بالتذكرة قوله تعالى في سورة الأعراف:

٢٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾

إشعار بعلو منزلة الأولياء الذاكرين، وقوة إيمانهم، وسلامة يقينهم، فبمجرد أن تطوف بهم لَمَّة من الشيطان، أو وسواس، أو بمجرد أن يمسَّهم شيء منه، يتذكَّرون؛ فيرون ذنوبهم كالجبال يخشون أن تقع عليهم، فتزول الغشاوة التي أحدثها الشيطان على قلوبهم بمعونة الله لهم، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ لحقائق الأمور على مرضاة الله بسبب تقواهم وتذكّرهم.

قال الشيخ العلاّمة المعلمي اليماني -رحمه الله-:

٢٤- **"فالمؤمن يتصارع إيمانه وهواه؛ فقد يطيف به الشيطان فيُغفله عن قوة إيمانه،**

فيغلبه هواه فيصرعه، وهو - حال مباشرة المعصية - ينازع نفسه، فلا تصفو له لذّتها، ثم لا يكاد جنبه يقع على الأرض حتى يتذكر فيستعيد قوة إيمانه فيثب يعضُّ أنامله أسفاً وحزناً على غفلته التي أعان بها عدّوَّه على نفسه عازماً؛ على ألاَّ يعود لمثل تلك الغفلة".[1]

وهؤلاء بخلاف من تركوا الانتفاع بالقرآن، وانساقوا مع الشياطين كما قال تعالى في الآية التالية:

٢٥- ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾

أي: لا يكف هؤلاء الشياطين عن إمداد أوليائهم من الإنس بألوان الشرور والآثام حتى يهلكوهم. فلا تزال الشياطين حريصة على إمداد الذين اختاروا بمحض إرادتهم - بعد أن تبيَّن لهم الحق - ﴿الْغَيِّ﴾ أي: الضلال والفساد، فيستمرّون في الذنوب والضلال، حتى يرى الواحد فيهم ذنبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا - أي بيده - فذبَّه عنه.

فلا الشياطين تقصر في إمداد الشر والباطل، ولا تمسك عن الإغواء والإضلال، ولا الذين أغوتهم الشياطين يقصرون عن فعل الشر والباطل، والطرفان الشيطانان الجني والإنسي متعاونان في الصدِّ عن الخير ودعوة الحق، ومشتركان في تحريف الفطرة، ولا يكفّان عن ملاحقة الطائفة المنصورة والدعوة السلفية لئلا تصل إلى أهدافها من التذكير والتعليم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

٢٦- "وَلِهَذَا كَانَتْ الرُّسُلُ إنَّمَا تَأْتِي بِتَذْكِيرِ الْفِطْرَةِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ لَهَا وَتَقْوِيَتِهِ وَإِمْدَادِهِ وَنَفْيِ الْمُغَيِّرِ لِلْفِطْرَةِ. فَالرُّسُلُ بُعِثُوا بِتَقْرِيرِ الْفِطْرَةِ وَتَكْمِيلِهَا لاَ بِتَغْيِيرِ الْفِطْرَةِ وَتَحْوِيلِهَا".[2]

---

(١) "القائد إلى تصحيح العقائد"(ص:٢٩).

(٢) "مجموع الفتاوى"(٣٤٨/١٦).

وليس المقصود من إنزال القرآن أن تشقى البشرية، بل المقصود الرحمة، ومن الرحمة التذكرة التي يتميَّز بها الشقي عن السعيد، كما قال تعالى:

٢٧- ﴿طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣)﴾.

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٢٨- **"أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين. وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهَّله غاية التسهيل، ويسَّر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة»**.

ولمَّا أُمر موسى وهارون - عليهما السلام - بالتذكير كما قال تعالى في سورة طه:

٢٩- ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤)﴾

والله في علمه السابق يعلم أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى، لكنه سبحانه وتعالى لم يعلمهما بنتيجة التذكير والوعظ، لذا فإنهما قاما بهذه المهمة على رجائهما وتوقعهما أن يتذكر فرعون أو يخشى.

وقد أوحى الله في كتابه العزيز أنه تكفَّل لمن تذكَّر وعمل بالذكرى ألاَّ يضل ولا يشقى، فقال:

٣٠- ﴿. . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣)﴾ (سورة طه)

قال ابن عباس - رضي الله عنهما-:

٣١- **«تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه؛ أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في**

الآخرة، ثم قرأ هذه الآية".[1]

وقال الشنقيطي -رحمه الله-:

٣٢- "دلت آية «طه» هذه على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعي الوحي، ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿. . . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨)﴾ ولا شك أن انتفاء الضلال والشقاوة والخوف والحزن عن متبعي الوحي، المصرح به في القرآن، لا يتحقق فيمن يقلد عالماً ليس بمعصوم، لا يدري أصواب ما قلده فيه أم خطأ، في حال كونه معرضاً عن التدبر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ".

وفرعون لمّا عَرَضَ عليه موسى وهارون [التذكرة أعرض ولم ينتفع بها، ومات وهو معرض عن التذكرة؛ مات شقياً كافراً، والنبي محمد ﷺ علّل لنا سبب عدم انتفاع فرعون بالتذكرة بقوله:

٣٣- «خُلق فرعون في بطن أمه كافراً".[2]

أما قيام موسى وهارون - عليهما السلام - بدعوته إلى الحق، فلأنهما لا يعلمان من علم الله أنه كافر، لذا استمرَّا بوعظه وتذكيره رجاء أن ينتفع بالذكرى ويهتدي. بينما القرآن نزل بكفر أبي لهب وامرأته في أوائل مباشرة النبي محمد ﷺ لدعوته فعلم انه لا فائدة من تذكيرهما.

والمذكِّر يسعى بجهده لتذكير الناس وهمّه أن يتذكَّروا، والشقي لا تقف حدود شقاوته عند إعراضه، بل يجب على المذكِّر أن يحذِّر، فالتحذير من التذكير كما قال تعالى:

٣٤- ﴿. . . وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ. . (٧٠)﴾ (سورة الأنعام)

---

(١) نقله ابن تيمية في "درء تعارض العقل والنقل" وابن كثير في "تفسيره".

(٢) أخرجه الطبراني، وابن عدي، وغيرهما، وهو في "السلسلة الصحيحة"(١٨٣١).

يعني ذكِّر بالقرآن وحذِّر به ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي: مخافة أن تُسلَم نفس للهلاك والعقاب بسبب عدم انتفاعها من الذكرى. والنفس في الدنيا مرهونة بعملها، فإن تذكَّرت انتفعت وإلاَّ فُضِحَت وأُهلكت بكسبها الفاجر. وقوله تعالى في الآية ذاتها:

٣٥- ﴿.. أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا.. (٧٠)﴾

أي: فضحوا في الآخرة بما كسبوا من الآثام التي تراكمت عليهم، وعقابهم شراب من حميم وعذاب أليم بسبب ذنوبهم وعدم انتفاعهم بالذكرى.

والتذكير حين يستمر ويتكرر يحصل معه التمايز؛ فالمؤمنون هم وحدهم الذين ينتفعون به، وغيرهم لا ينتفعون به، كما قال تعالى في سورة "الذاريات":

٣٦- ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾

والذكرى: اسم للتذكير، قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٣٧- "لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها".

والتذكير في القرآن عام كما قال تعالى:

٣٨- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ (سورة الغاشية)

إلاَّ أنه لمّا كان المنتفع به المؤمن الذي يخشى الله ويخاف وعيده صار كأنه مختص به، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقيام العبد المؤمن بالتذكير لا يوقفه أو يعيقه اتهام الضُّلال له بالجنون أو الكهانة أو غير ذلك من الاتهامات المضلِّلة، لأن الذي أسند الله إليه التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إسناداً مطلقاً من صفاته الجمع بين العلم والحكمة والصبر على أذى الناس.

فالتذكير والأمر بالمعروف وظيفة الرسل وأتباعهم وهو مستلزم لأذى أهل الباطل الذين جبلوا بالطبع على معاداة من يتعرض لهم في أهوائهم الفاسدة،

وأغراضهم الباطلة، لذلك جاءنا الله تعالى بالحكمة والموعظة وأمرنا وأوصانا بها فقال في سورة النحل:

٣٩- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . (١٢٥)﴾

وعلى المذكِّر أن يتذكِّر أنه في نعمة، وتصحبه النعمة في كل لحظة، فعليه ألاَّ يلتفت إلى أقوال من خرجوا عن الهدي النبوي والعلم السلفي، كما قال تعالى:

٤٠- ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ (٢٩)﴾ (سورة الطور)

فعلى أهل القرآن الذين يذكِّرون الناس بالحق الاستمرار في التذكير مهما كانت المعوِّقات المفتعلة. ويستمر التذكير رغم أنف الحاسدين والمبغضين لأن التذكير في النهاية تستقر منفعته بمشيئة الله عند الذين يرغبون في الانتفاع، وهم المتَّقون، كما قال تعالى:

٤١- ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾ (سورة الحاقة)

ففي هذه الآية الكريمة خلاصة الذي تقدَّم وهي: أن القرآن العظيم تذكرة خصَّ الله بنفعها المتقين، وهم: المؤمنون الذين يخشون ربهم ويخافون وعيده.

وقد ترتب على اختصاص المتقين بالانتفاع: قيام الحجة على من أعرض عن التذكرة وهم: الكفّار والضلاّل والفسقة، مما يجعلهم بعدئذ معرَّضين للعذاب في دنياهم وآخرتهم.

(٦)

حكمة الإقبال على المقبل والإعراض عن المعرض

من رحمته تعالى أنه نبّه المؤمنين وحثَّهم على ديمومة تدبُّر القرآن والعمل به، لأن الذين أعرضوا عنه لا غرض لهم في اتِّباع الحق، إنما غرضهم ومقصودهم الدنيا وما تهواه أنفسهم.

وإذا كان حالهم كذلك فإن الله تعالى أمر نبيَّه محمداً -عليه السلام- بالإعراض عمن تولَّى عن ذكره الحكيم فقال في سورة النجم:

١- ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩)**﴾

والذكر في الآية الكريمة هو القرآن العظيم، وعوقبوا بالإعراض عنهم لأنهم قصروا إرادتهم على الدنيا وحطامها، وأرادوا أن يجروا وراء لذّاتها وشهواتها.

٢- «**وأمَّا المؤمنون بالآخرة، المصدِّقون بها، أولو الألباب والعقول، فهِمَّتهم وإرادتهم للدَّار الآخرة**». [١]

فتذكير هذا اللون من الناس عبث، ومضيعة للوقت، لأنه لا فائدة في تذكيرهم بعد أن استفرغ المذكِّر جهده معهم.

---

(١) قاله الشيخ العلاَّمة السعدي -رحمه الله-.

وإذا وجد في الناس من قصر سعيه على الدنيا، فإن فيهم من يسعى للآخرة، وإذا كان من الضروري الإعراض عن من تولّى عن الذكر في الدنيا من باب البراءة، فإنه من الضروري من باب الموالاة الإقبال على من أقبل على الآخرة، لذا عاتب الله نبيَّه محمداً ﷺ لانصرافه عن تذكير من جاءه يسعى ليتزكّى، فقال:

٣- ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾ (سورة عبس)

ولّما كان الذين أعرضوا عن ذكر الله في غالب أحوالهم هم من الرؤساء والأثرياء وقد قصروا سعيهم على الدنيا وجعلوها مبلغ علمهم وهمِّهم، فإن المستضعفين في غالب أحوالهم وهم الفقراء والضعفاء - في المقابل - قد جعلهم الله تعالى في سنَّته أتباعاً للرسل وأنصاراً لهم، فلهم الأولوية في التذكير، كما قال رسول الله ﷺ:

٤- **"أبغوني الضعفاء؛ فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم"**.[١]

ليس النصر والرزق بذواتهم، بل بدعائهم وإخلاصهم لله، كما قال ﷺ:

٥- **"إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها: بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم"**.[٢]

قال ابن بطال -رحمه الله-:

٦- **"وتأويل ذلك أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصًا وأكثر خشوعًا؛ لخلاء قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا وزينتها وصفاء ضمائرهم مما يقطعهم عن الله، فجعلوا همَّهم واحدًا؛ فزكت أعمالهم، وأجيب دعاؤهم"**.

وبالتالي فإن الكبراء في كل قرية تجدهم عند التذكير لا يأبهون بالذكرى، بل يصمّون آذانهم عن سماعها خشية أن يمتدَّ الحق إليهم فيُطالَبون بما هم فارّون

---

(١) أخرجه أبو داود، والنسائي، والترمذي، وأحمد، وغيرهم، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٧٧٩).
(٢) أخرجه النسائي، وغيره، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٤٠٩/٢).

منه. قال علماؤنا:

٧- «**إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير؛ والفقير خلي عن تلك الموانع، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد. وهذا غالب أحوال أهل الدنيا**». (١)

وهذا كقول هرقل لأبي سفيان:

٨- «**سَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَزَعَمْتَ ضُعَفَاءَهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ**». (٢)

وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس:

٩- "**ما رأيك في هذا**"؟

قال:

١٠- "**رجل من أشراف الناس؛ هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع**".

فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل فقال رسول الله ﷺ:

١١- "**ما رأيك في هذا**"؟

فقال:

١٢- "**يا رسول الله! هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله**".

فقال رسول الله ﷺ:

١٣- "**هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا**". (٣)

---

(١) نقله القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن".

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه.

والذين استُضعفوا هم عامّة النّاس الذين أذلّهم عظماؤهم واستعبدوهم لأنّ زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السّيادة الدّنيوية، وقد حكى الله تعالى مقالة قوم صالح -عليه السلام- في كتابه العزيز فقال:

١٤- ﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)**﴾ (سورة الأعراف)

لم يقف أعيان وأشراف ووجهاء ثمود من قوم صالح -عليه السلام- عند حدِّ الاستكبار على الحق، بل انطلقوا نحو الذين أقبلوا على الذكر والقرآن؛ الذين استضعفوهم واسترذلوهم من المؤمنين - من قومهم - قائلين:

﴿**أَتَعْلَمُونَ**﴾؟! وهذا أول احتكاك لهم بالمستضعفين، يسألونهم: أأنتم على اليقين؟ أتجزمون بـ أن ﴿**صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾ وأنه غير كّذاب، ولا مجنون!! وهدفهم من الاستفهام السخرية للدفع نحو التشكيك بشخص صالح -عليه السلام- ! وبالتالي التهديد، وتجاوزوا في الاستفهام رسالته؛ إخفاءً لحقيقة ما أرسل به. إنهم يريدون فتنتهم عن دينهم بعد ثباتهم على الحق الذي جاءهم به - عليه السلام..

وقوله تعالى: ﴿**لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ**﴾ اختصاص هذه الفئة - القليلة - من المستضعفين بالإيمان، وإلا فهناك من المستضعفين باقين على ولائهم للكفر والباطل.

فالرئاسة والوجاهة في القوم لقساوة قلوبهم وشماخة نفوسهم لا يمكنها أن تكون تبعاً ! لذا فهي تجادل لتحفظ مكانتها، أما الضعفاء والمساكين أنصار الدعوة فإنهم لا يطمعون بالرئاسة ولا أن يكونوا وجهاء القوم يشار إليهم بالبنان - كما يخيّل لبعض الأعيان -، ولا يستنكفون أن يكونوا تبعاً في الصواب، لأنهم الأسرع للإجابة إذا سمعوا الحق. لذلك انطلقوا بالجواب شجاعاً صريحاً ردّاً على المستكبرين قائلين: ﴿**إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾

وتجاوزوا فيه شخص نبيهم -عليه السلام- (فكونه مرسل أمر مفروغ منه لا يشكّون فيه) لكنهم أخبروا أنهم نظروا إلى ما أرسل به نبيهم فوجدوا رسالته حقاً من رب العالمين فآمنوا، ففوتوا بجوابهم المختصر الحكيم على المستكبرين: فرصة التشكيك بصالح - عليه السلام-، وفرصة اتهامهم بالتعصب والجهالة والتقليد الأعمى، وواجهوا خصومهم لعلهم يعترفون بدعوة الحق. لكن الحسد والكبر هو الذي حمل خصومهم من أهل الباطل ألاَّ ينقادوا إلى الحق الذي انقادوا إليه.

ولم يترك الله عز وجل نبيَّه محمداً ﷺ من غير أن يبيِّن له طريقة معاملتهم، بل أمره بعد الإعراض عنهم بالصبر على الأذى، ومواجهة الجفاء بالحكمة واللين، فقال في السورة:

١٥- ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)**﴾

فأشار في الآية الكريمة إلى ما ينبغي أن يعامل به الأعداء الجهلة من شياطين الإنس، قال ابن كثير -رحمه الله-:

١٦- **"ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته، بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذى"**.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في تفسير الآية:

١٧- **"هذه أخلاق أمر الله عز وجل بها نبيَّه ﷺ ودلَّه عليها"**.[1]

لكن لمّا كان الذين انصرفوا عن ذكر الله لا يزالون يحتجّون بحجج واهية تكشف عما في مكنونهم، كما حكى الله تعالى عنهم:

١٨- ﴿**قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١)**﴾ (سورة الشعراء)

فإن هذه الآية الكريمة بيَّنت سبب امتناعهم عن سماع القرآن وعدم اتباعهم

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري بإسناد صحيح.

لنوح ﷺ وهو: الإعجاب بأنفسهم وغرورهم بدينهم، فاستدلُّوا على أن لا خير في الإسلام إذا كان أتباعه الأرذلون!

وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وكونهم من أهل الصناعات المهينة. فعدّوهم منحطين بالدرجة عنهم، لأنهم الأقل فى المال والجاه والنسب، وهذا جهل منهم لأن الصناعات لا تضر في باب الديانات. كما أن الرِّفعة في الدِّين لا تكون بالحسبِ ولا بالمالِ ولا بالمناصب، فكيف يُجعلُ الفقرُ في الدُّنيا، طعناً في الدين؟ فبزعمهم لو كان صادقاً لكان أتباعه: الأشراف والرؤساء والأثرياء! قال ابن القيم -رحمه الله-:

١٩- **"فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهّلَهم للهدى والحق وحرمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم، كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة فأخبر الله سبحانه أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده من معرفة قدر النعمة ورؤيتها؛ من مجرد فضل المنعم ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السر فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء"**.[1]

وقال ابن كثير -رحمه الله-:

٢٠- **"وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رَذَالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته"**.

بل بلغت الوقاحة بهم مبلغاً؛ فقد طلبوا منه طردهم من مجلسه فيما لو أرادوا أن يسمعوا له، فماذا كان جوابه - عليه السلام-؟

---

(١) "مدارج السالكين"(١٠٦/٣).

٢١- ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤)﴾

أي: لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، فإذا صاروا في التذكير إلى الإيمان الذي أدعوهم إليه فلست لضعفهم وفقرهم وإيمانهم بطارد لهم. ونظيره قوله تعالى في سورة هود:

٢٢- ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧)﴾

أشارت الآية إلى عدة طعون وجَّهها الملأ وكبار القوم إلى نوح وأتباعه، منها قولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ جمع رذيل على خلاف القياس. والرذيل: المحتقر. وكان أتباع نوح -عليه السلام- من ضعفاء القوم وفقرائهم، ولكنهم على الهدى من أزكياء النفوس. ومنها قولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: أنهم لا يحسنون تقليب وجهات النظر، والتشاور مع الآخرين، فقرارهم باتباع نوح قرار فيه ما فيه من الطيش والتهوُّر، وهؤلاء الأراذل - بزعمهم - اندفعوا بحماسة ظاهرة مخدوعين وقد غَرّر بهم نوح -عليه السلام- فأقبلوا على ذكر الله والقرآن من غير تروّي ولا سابق تجربة ! هؤلاء ليس معهم الدرجات والشهادات العلمية الشرعية ! كيف يليق بهم أن ينصروا دعوة الحق وهم ليسوا بأهل للبحوث والدراسات الشرعية ! ولو أنك فتشت فيهم لما وجدت فيهم واحداً في جامعة بَلْهَ في مدرسة شرعية ! فأنتم بأعمالكم المهينة المحتقرة، وبافتقاركم للشهادات العلمية الشرعية لا تفضلوننا بشيء ! ففيكم السائق، والبناء، والسمكري، والطبّاخ، وميكانيكي السيارات، والبائع، والحمّال، ونحو ذلك، وختموا طعوناتهم بقولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: نعتقد اعتقاداً جازماً أنكم كاذبون !

فاعترفوا في آخر طعن لهم ورد في هذه الآية الكريمة أن الدعوة حق وأنهم محرومون منها، لذا ردَّ عليهم نوح -عليه السلام- بقوله:

٢٣- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ(٢٩)﴾

فأبى نوح -عليه السلام- أن يطرد المؤمنين من مجلس تذكيره، بل وقَّرهم لأنهم أقبلوا على طلب الآخرة، فهو بدوره لا بدَّ أن يُقبل عليهم ويحترمهم، وبقوله الأخير في الآية: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حسم النتيجة معهم إذ أهَّل لنفسه الإعراض عنهم امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، قال ابن القيم -رحمه الله-:

٢٤- **"إن أتباع الرسل الذين صدَّقوهم وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم، قد أودع الله قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته والإيمان به خفي على أعداء الرسل، فنظروا إلى ظواهرهم وعموا عن بواطنهم فازدروهم واحتقروهم وقالوا للرسل اطرد هؤلاء عنك حتى نأتيك ونسمع منك".** (١)

واستمر نوح -عليه السلام- بجوابه قائلاً:

٢٥- ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾

لكن لمَّا قدَّر الله للدعوة أن تنتقل إلى حالة الجهر بالبيان القوي المقرون بالحجة المؤثِّرة في النفوس والقلوب، أمر نبيَّه محمداً ﷺ بالصَّدْع بها، وجاء الأمر بكلمة الصَّدع للإشعار بأن للصَّدع أثراً في نفوس المخالفين من داخلهم، كما للزجاجة المصدوعة من باطنها، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على زيادة ثقل

(١) "مدارج السالكين"(٣/١٧٠).

الحجَّة على من أعرض عن القرآن في هذه المرحلة من التذكير، لذا قال:

٢٦- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ (سورة الحجر)

أي: فاجهر بالتذكير وبما أُمرت بتبليغه، ولا تبال بتكذيب من أعرض، بل احتمل أذاهم، واستمر بالدعوة والتذكير. قال ابن القيم -رحمه الله-:

٢٧- "**فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغيرَ والكبيرَ، والحرَّ والعبدَ، والذكَر والأُنثى، والأحمرَ والأسودَ، والجِنَّ والإنسَ.**

ولما صَدَعَ بأمرِ الله، وصرَّحَ لقومه بالدَّعوة، وناداهم بسبِّ آلهتهم، وعَيبِ دينهم، اشتد أذاهم له، ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى، وهذه سُنَّة الله عزَّ وجلَّ فى خلقه".[1]

فكان غالب من اتبعه في أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، فوقع من سنَّة الله ما وقع للرسل والأنبياء من قبل، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال:

٢٨- "مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ؛ وعنده صهيب، وبلال، وعمّار، وخبّاب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! اطردهم، أرضيت هؤلاء من قومك، أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟! أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟! فَلَعَلَّكَ إن طردتهم أن نأتيك! قال: فنزلت:

٢٩- ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾[2]

---

(١) "زاد المعاد"(١٣/٣).

(٢) سورة الأنعام، والحديث أخرجه أحمد، والبزار - والسياق له - من طريق ابن جرير في "التفسير"،والطبراني في "المعجم الكبير"، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٣٢٩٧)، وأخرج نحوه الإمام مسلم.

فأشارت الآية الكريمة إلى ضرورة تقريب هؤلاء الذين يريدون وجه الله، والإقبال عليهم، لأنهم أقبلوا على ذكر الله والقرآن بنية خالصة، فلا يمكنك أن تطردهم من مجلسك، بل قرِّبهم واقترب منهم وأقبل عليهم فإن الخير فيهم، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا ضعفاء فقراء. قال ابن القيم -رحمه الله-:

٣٠- **"والذي يظهر من الآية أن الله يعلم ما في أنفسهم إذ أهّلَهم لقبول دينه وتوحيده وتصديق رسله، والله سبحانه وتعالى عليم حكيم يضع العطاء في مواضعه"**.(١)

وكما أن الله تعالى

٣١- **"لم يطرد عن بابه ولم يبعد عن جنابه من يليق به التقريب والهدى والإكرام بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه وجعله من أهله وخاصته وأوليائه"**.(٢)

فأنت لا ﴿**تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾. ويبدو مما تقدَّم أن الصَّدع بالحق جاء بأثر وخير عظيم: فإنه لمّا زاد البيان قوة وحجَّة بات الأمر بموالاة المؤمنين الصادقين والبراءة من المشركين؛ مقروناً بمحاذاة التذكير بالقرآن والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، وهذا يشير إلى البدء بالتمايز بين فريقي الحق والباطل، وإلى هذا ذهب الحافظ ابن حجر -رحمه الله- فقال:

٣٢- **"والمراد بقوله: ﴿فَاصْدَعْ﴾ أي: فرِّق بين الحق والباطل بدعائك إلى الله وافصل بينهما"**.(٣)

---

(١) "مدارج السالكين"(٣/١٧٠).
(٢) "مدارج السالكين"(١/١٢٨).
(٣) "فتح الباري"(٨/٣٧١).

إن الفقير ممتحن بالغني، كذلك الغني ممتحن بالفقير، والفتنة أن يحسد الفقير المبتلى الغنيِ المعافى فيبغي عليه، ويحقر الغني المعافى الفقير المبتلى، وهكذا صاحب كلِّ آفة، والحال كذلك في المؤمن البصير بدينه فإنه ابتلاء وفتنة لمن أضلَّه الله عن الهدى وأعمى بصيرته، والرسول المخصوص بكرامة النبوة ابتلاء وفتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره وكذلك العلماء، وحكام العدل، وكذلك أتباع الرسل فإنهم ابتلاء وفتنة للكبراء في قومهم لأنهم أعطوا نعمة التذكرة بينما الذين استكبروا حرموا منها، كما قال تعالى:

٣٣- **﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾ (سورة الأنعام)**

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٣٤- **"أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنياً؛ وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم وضيعاً، فإذا مَنَّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل محنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه، آمن وأسلم، ولم يمنعه من ذلك مشاركه الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق.**

وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال الله مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرّون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس بشاكر، فإن الله تعالى حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف، بخلاف من مَنَّ الله عليهم بالإيمان، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون.

ولما نهى الله رسولَه، عن طرد المؤمنين القانتين، أمَره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال:

٣٥- ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ. .(٥٤)﴾

أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحَيِّهم ورحِّب بهم ولَقِّهم منك تحية وسلاماً".

وكما أمر ﷺ بالجهر بالذكر وتبليغ ما أمر به، أمره باتباع ما أوحي إليه من ربِّه الذي لا إله إلا هو، وأن يستمر بالتبليغ معرضاً عن المشركين محتملاً أذاهم، فقال:

٣٦- ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)﴾ (سورة الأنعام)

وقد شهد له تعالى بأنه امتثل ذلك الأمر فبلَّغ على أكمل وجه؛ وتقيَّد بما أُمر به، فالنبي ﷺ ذكَّر بالقرآن فاتهمه الخصوم الكفّار بالسحر والجنون، فلمّا استمر على التذكير تبيَّن لأعداء الله أن التذكرة خصَّ الله بنفعها المتقين، فلمّا زادت معارضتهم له أُمر بالصبر على أذاهم فكانت الخلاصة في سورة الذاريات في قوله تعالى:

٣٧- ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾

ففي هذه الآية الكريمة ظهرت حكم ثلاث بعد قيام المذكِّر بالتذكرة على الوجه المطلوب وهي:

الأولى: إقامة حجة الله.

الثانية: خروج المذكِّر من عهدة التكليف بالتذكير. فمن لم يخرج من العهدة كان ملوماً.

الثالثة: حصول النفع.

(٧)

الفرقان أعظم بركات القرآن

في القرآن آيات كثيرة فيها إخبار من الله عز وجل عن إنزال كتابه العزيز، منها قوله:

١- ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)**﴾ (سورة القدر)

قال البخاري -رحمه الله-:

٢- "﴿**أَنْزَلْنَاهُ**﴾: **الهاء كناية عن القرآن، . . والمنزِّل هو الله وحدَه**".

وعظَّم الله تعالى نفسه بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ فقالها بصيغة الجمع، وقال الراغب:

٣- «**عبَّر بالإنزال دون التنزيل لأن القرآن نزل دفعة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك شيئاً فشيئاً**".

وسميَّت الليلة التي أُنزل فيها القرآن ﴿لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ لعظمها وشرفها على غيرها من الليالي، فليلة القدر لها قدر عظيم بسبب ما حصل فيها من الأمور الشريفة وعلى رأسها إنزال القرآن جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

ولعل من أعظم بركات إنزال الله القرآن على النبي ﷺ دعوته الناس للتفكر في آياته والاتعاظ بها، ودعوته لهم للتدبُّر والتذكُّر، كما قال:

٤- ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ (٢٩)**﴾ **(سورة ص)**

ولّما كان القرآن للتذكير والوعظ، فإن الله تعالى أقسم به في مطلع سورة «ص» لعظيم نفعه وكثرة خيراته وغزارة علمه، ثم في السورة قال: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ**﴾ أي: أنزلناه إليك يا محمد! وَوَصَفَه بالمبارك وقرَن بركَته بحكمة إنزاله وأعلاها التدبُّر، فقال: ﴿**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾ قال القرطبي -رحمه الله-:

٥- «**وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن**".

ومعنى تدبَّرت الشيء: فكَّرت في عاقبته، فأشار بذلك إلى بركة تدبُّر القرآن فمن تدبَّره رُزق بركة الاتعاظ والهدى. كما قال بعضهم:

٦- "**من أصابته بركة القراءة رُزق التدبر في آياته، ومن رُزق التدبُّر لم يحرم التذكُّر والاتعاظ به**".

ولّما كان التدبُّر من أعمال القلوب، فإن من سمعه من النبي ﷺ ثم تدَّبره وفق منهاج النبوة والسلف صار إلى بركة التذكُّر، فإن بركة التذكُّر من آثار بركة التدبُّر.

وأشارت الآية الكريمة إلى فضيلة العقول لمن استعملها في التدبر. وأشارت إلى من خصَّهم ببركة الهدى والتذكُّر وهم أولوا الألباب أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال. لذا نبَّه الشنقيطي -رحمه الله- إلى ذلك بقوله:

٧- "**فلا تخرج نفسك من عموم أولي الألباب الذين هم أصحاب العقول، لأنك إن فعلت ذلك اعترفت على نفسك أنك لست من جملة العقلاء**".

وأشار الشيخ السعدي -رحمه الله- إلى فائدة تدبُّر آيات كتاب الله فقال:

٨- "**ليتدبَّر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبُّر فيه والتأمُّل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تُدْرَك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبُّر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال،**

وأن القراءة المشتملة على التدبُّر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبُّرهم لها كل علم ومطلوب، فدلَّ هذا على أنه بحسب لبِّ الإنسان وعقله يحصل له التذكُّر والانتفاع بهذا الكتاب".

وقال الشيخ محمد صالح العثيمين -رحمه الله-:

٩- "وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلَّمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنَّهم بذلك يتمكَّنون من العمل بالقرآن على مراد الله به، فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن".

ومعلوم لدينا أن الله تعالى مُتبارِكٌ لأن البركة كلَّها منه، كما قال في مطلع سورة الفرقان:

١٠- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ. .(١)﴾

فدلّ على أن تنزيله من أعظم البركات والخيرات والنعم التي أنعم بها على خلقه، وقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ قال ابن كثير -رحمه الله-:

١١- «هو تفاعَلَ من البركة المستقرة الدائمة الثابتة، وقوله: ﴿نَزَّلَ﴾ فَعَّل، من التكرر، والتكثر».

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

١٢- "أي: تعاظم وكَمُلَت أوصافه وكثُرت خيراته».

ومن بركاته: أن الله تعالى سمّاه ﴿الْفُرْقَانَ﴾ لأنه يفرِّق: بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، والسّنّة والبدعة، والخير والشر.

ولمّا كان القرآن نزل مفرَّقاً ليس جملةً واحدةً، كما صحَّ من قول ابن عباس -رضي الله عنهما- وكما قال ابن كثير -رحمه الله-:

١٣- "الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل مُنَجَّماً مُفَرَّقاً مُفَصَّلا آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سُوَر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة:

١٤- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾

فإن من بركات إنزاله مفرَّقاً ما يشير إلى حصول السعادة والفلاح لمن تلاه وتدبَّره وتبيَّنه، كما قال تعالى:

١٥- ﴿طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)﴾

فبسبب التدبُّر الخالص - لوجه الله تعالى - يحصل التفريق بين الحق والباطل، والتفريق بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، فمن اعتمد القرآن حجة - ليميِّزَ به بين الهدى والضلال، والحق والباطل - خرج من دائرة الشقاء بإذن الله.

وأُنزل القرآن جملةً واحدةً ليلة القدر إلى سماء الدنيا، ثم كان ينزل به جبريل -عليه السلام- نجماً بعد نجم، وحيناً بعد حين، كما قال تعالى:

١٦- ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (١٠٦)﴾(سورة الإسراء)

والمراد بقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَاهُ﴾:

١٧- "نجوماً لا جملةً واحدة، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنها نزلت جملة، وهكذا معنى: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ فقرأه عليهم بحسب نزوله في ثلاث وعشرين سنة". (١)

وأشار الحافظ ابن حجر -رحمه الله- إلى فوائد إنزال القرآن مفرَّقاً فقال:

١٨- "وفي إنزاله مفرقاً وجوه من الحكمة منها: تسهيل حفظه لأنه لو نزل جملةً

---

(١) "المتواري على أبواب البخاري" لابن المنيّر (ص:١٩٦).

واحدةً على أمة أمية لا يقرأ غالبهم ولا يكتب لشقَّ عليهم حفظه. . . . ومنها: ما يستلزمه من الشرف له والعناية به لكثرة تردد رسول ربه إليه يعلمه بأحكام ما يقع له، وأجوبة ما يسأل عنه من الأحكام والحوادث. ومنها: أنه أنزل على سبعة أحرف فناسب أن ينزل مفرَّقاً إذ لو نزل دفعة واحدة لشقَّ بيانها عادة. ومنها: أن الله قدَّر أن ينسخ من أحكامه ما شاء، فكان إنزاله مفرَّقاً لينفصل الناسخ من المنسوخ أولى من إنزالهما معاً. وقد ضبط النقلة ترتيب نزول السور».[1]

وأشار «صاحب التفسير الكبير» إلى فائدة أخرى وهي:

١٩- «أنه لو نزل جملةً واحدةً لضلَّت فيه الأفهام وتاهت فيه الأوهام».

فالقرآن مبارك لأنه من مُتبارك، ففيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، فهو كما أشار الله إليه بقوله في سورة الأنعام:

٢٠- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ. . (٩٢)﴾

وقدَّم هنا صفة إنزاله على صفة بركته لكونه جاء بعد الإنكار عليهم في الآية التي سبقتها:

٢١- ﴿. . إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ. . (٩١)﴾

وفيها من بركاته: أنه مصدِّقٌ للكتب التى قبله في إثبات التوحيد ونفى الشرك. وفيها: دعوته أهل الكتاب لتدبُّر القرآن. فإذا أصاب العبد المؤمن بركة التذكُّر بعد التدبُّر، طولب العمل به، كما قال تعالى في سورة الأنعام:

٢٢- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾

---

(١) "فتح الباري"(٨/٩).

واتباعه: العمل بما فيه، كما قال الشنقيطي -رحمه الله-:

٢٣- «**العمل بالوحي، هو الاتباع كما دلت عليه الآيات**».[١]

وقال في «العذب النمير»:

٢٤- «**وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلاَّ الناس الطيبين المباركين**".

فنرجو الله تعالى القريب المجيب: أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لنؤمن به ونتدبر آياته، فنعمل بكلمة التوحيد «لا إله إلاَّ الله» ولاءً وبراءً، وأن يوفقنا للعمل بأحكامه من الحلال والحرام من غير احتيال ولا مواربة أو نفاق، وأن نلتزم بأوامره ونواهيه ومكارم آدابه، فنحصل على الخيرات والرحمات والبركات إنه سميع عليم.

وكون ليلة القدر هي الليلة التي أُنزل فيها القرآن العظيم، فهي ليلة مباركة كما قال تعالى:

٢٥- ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ . .(٣)**﴾ (سورة الدخان)

ومن بركتها أنها خير من ألف شهر، فهي كثيرة البركات والخيرات، قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٢٦- "**فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام لينذر به قوماً عمَّتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة فيستضيئوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الآخروي**».

وإذا كنّا بصدد الحديث عن بركات القرآن فإن من حِكَم إنزاله: إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلال والمعاصي؛ إلى نور الإيمان والهدى، كما قال تعالى:

٢٧- ﴿**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى**

---

(١) "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن".

صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾ (سورة إبراهيم)

فمن أنعم الله عليه ببركات القرآن نصَّبه لإخراج الخلق من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية، وابتدأ ذلك بقوله في شأن محمد ﷺ إمام الأئمة فقال: **﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾** فكان هذا إنعاماً على الرسول ﷺ، إذ نصَّبه ربُّه إماماً للناس فدلَّت الآية الكريمة على بركة عموم رسالته.

فالقرآن العظيم مبارك لمن يتبرَّك به ويطلب الخير منه، ومن بركته - مثلاً - أن قراءة الحرف الواحد منه بعشر حسنات، وإلاَّ فإن بركاته كثيرة وكثيرة جدّاً، وقد أشار الله تعالى إليه في سورة الأنعام في الآيتين (٩٢) و (١٥٥) بقوله: **﴿وَهَـذَا كِتَابٌ﴾** وقدَّم صفة الفعل **﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾** على صفة القرآن الاسمية **﴿مُبَارَكٌ﴾**، لكنه في سورة الأنبياء قال:

٢٨- **﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)﴾**

لاعتماد استقرار بركته، فقدَّم صفته الاسمية **﴿مُبَارَكٌ﴾** تنبيهاً إلى تعظيمه لما فيه من البركات ليأخذ حيِّزه عند البشرية من الاهتمام، ولترغيبهم في العكوف عليه والاتعاظ بأوامره ونواهيه، ووبَّخ من ينكرونه فقال: **﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾** فأنكر عليهم إهماله وعصيانه مع ما فيه من الخيرات.

فالقرآن العظيم ذكر مبارك أنزله الله على نبيِّه محمد ﷺ في شهر رمضان كما جاء في «صحيح السيرة النبوية» (ص: ٨٩):

٢٩- **«والمشهور أنه بعث - عليه الصلاة والسلام - في شهر رمضان كما نص على ذلك عبيد بن عمير، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما، واستدل ابن إسحاق على ذلك بقول الله تعالى:**

٣٠- **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ. . (١٨٥)﴾** (سورة البقرة)

ومعلوم أن شهر رمضان أُنزلت فيه كتب الذكر جميعاً كما قال رسول الله ﷺ:

٣١- **"أُنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»**.[١]

ونزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، أما القرآن فنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل مفرَّقاً على محمد ﷺ، قال ابن كثير -رحمه الله-:

٣٢- **"أما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملةً واحدةً إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر منه، . . ثم نزل بعدُ مفرّقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ»**.

وقوله تعالى: ﴿**هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ فالقرآن المبارك نزل في ليلة القدر المباركة في شهر رمضان هدى للناس، والناس بعد تدبُّره وظهور بيِّناته وحِجَجِه من الهدى إلى الفرقان، قال ابن القيم -رحمه الله-:

٣٣- **«والفرقان: هو العز والنصر والنجاة والنور الذي يفرِّق بين الحقِّ والباطل»**.[٢]

وفي الفرقان - ولله الحمد - تميَّزت الطائفة المنصورة عن غيرها، كما قال تعالى في سورة الأنفال:

٣٤- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا . . (٢٩)**﴾

٣٥- **«ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرِّقون به بين الحق والباطل، والنصر**

---

(١) رواه أحمد، والبيهقي، والطبراني في "المعجم الكبير"، وابن عساكر، وغيرهم، وهو في "السلسلة الصحيحة"(١٥٧٥).

(٢) "إغاثة اللهفان"(١٨٦/٢).

والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحقِّ وكسر الباطل». [1]

وقال القرطبي -رحمه الله-:

٣٦- «وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علَّمَه، أي: يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداءً فرقاناً، أي: فيصلاً يفصل به بين الحقِّ والباطل».

وقال تعالى في السورة»:

٣٧- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾ (سورة الأنفال)

فقوله تعالى: **﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾** يعني: يوم النصر، يوم فرَّق الله بين الحقِّ والباطل، وسمَّى يوم بدر **﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾** لأنه فرَّق بين أولياء الله وأعدائه، وعلى هذا فإن الطائفة المنصورة فرقان لأنها تدبَّرت كتاب الله ففرَّقت به بين الحق والباطل على منهاج النبوَّة والسلف، فاحبَّها الله ومن ثمَّ استعملها فرقاناً كرامةً لها، قال تعالى:

٣٨- ﴿الم (١) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ (٤)﴾ (سورة آل عمران).

والكتب السماوية كلُّها على التفرقة بين الحق والباطل في الاعتقادات، وعلى التفرقة بين الحلال والحرام في الأحكام، وعلى التفرقة بين الخير والشر في الأفعال، وعلى ما يحصل نورًا في القلوب، وهداية وخوفًا وإنابة وخشية.

---

(١) "الفوائد" لابن القيم (ص:١٣٠).

لكنه سبحانه زاد عليها بما أودعه الله في القرآن من البركات حين قال: ﴿**وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ**﴾.

واعلم أن الإنزال أعم من التنزيل كقوله تعالى:

٣٩- ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً(٢٣)**﴾ (سورة الإنسان)

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿**تَنْزِيلاً**﴾ قال البقاعي -رحمه الله- في "نظم الدرر":

٤٠- "**أي على التدريج بالحكمة، جواباً للسائل ورفقاً بالعباد، فدرجهم في وظائف الدين تدريجاً موافقاً للحكمة، ولم يدع لهم شبهة إلا أجاب عنها**».

فالقرآن نزَّله الله تنزيلاً؛ بركةً ورحمةً وتبييناً بمعنى أتى به آية أية، وسورة سورة، يساير به حياة المجتمع في عهد النبوة، ويعايشهم في مشاكلهم وظروفهم، وكل مشكلة جاءت ينزل بحلِّها، وكل قضية واجهتهم يأتيهم بتوجيهها، فكانوا يأخذون القرآن حُكماً حُكماً، فما انتهت فترة الوحي إلا وقد استوعبوا الوحي كلَّه، وقد عبَّرت أم أيمن -رضي الله عنها- عن حزنها لمفارقة الوحي بعد وفاة الرسول ﷺ فهيَّجت أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - فجعلا يبكيان معها حين قالت:

٤١- «**مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ**». (١)

ففي كلامها تصريح واضح بمدى العلاقة بين الوحي والمجتمع في عهد النبوَّة، وهذا بخلاف ما كان يجري مع الرسل الذين سبقوا النبي ﷺ فإن الذكر نزل على كلِّ واحدٍ منهم جملةً واحدةً.

لقد جاءت همزة التعدية في قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ**﴾ إشارة

---

(١) أخرجه مسلم، وابن ماجه.

إلى نزولهما جملةً واحدةً، لكنه لمّا ذكر القرآن قال: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾ فأفاد تتابع نزوله على النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة منجماً، وذلك أدعى للتدبُّر والتبيُّن والتثبيت كما قال: ﴿**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**﴾ ففي الآية وغيرها ردٌّ على اعتراض الكفّار حين أرادوا التشكيك في عدم صحته لكونه لم ينزل جملة واحدة كما نزلت الكتب المتقدِّمة.

وجمع الله تعالى لكتابه العزيز في بين ﴿**نَزَّلَ**﴾ و ﴿**وَأَنْزَلَ**﴾ في الآيتين (٣) و (٤) من سورة آل عمران، فالأولى أشار فيها إلى نزوله منجّماً، والثانية أراد بها الوصف ﴿**الْفُرْقَانَ**﴾ لأنّ التفرقة بين الحق والباطل هي الغاية المثلى من التدبُّر، وهي أعظم أحوال الهدى، لما فيها من البرهان، وإزالة الشبهة.

وفسَّر ابن القيم -رحمه الله- الفرقان بقوله:

٤٢- «**هو النصر الذي يفرِّق بين الحق والباطل**».[1]

ولا يتحقق النصر إلاَّ بعد ظهور البيِّنة، لذا جاءت سورة "البيِّنة" في الترتيب الموضوعي للمصحف بعد سورة "القدر" وفيها قال تعالى:

٤٣- ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤)**﴾

وبهذه الآيات ظهرت خلاصة الذي تقدَّم ابتداءً من سورة "اقرأ" وهي سورة "العلق" التي سبقت سورة "القدر" وانتهاءً بسورة "البيِّنة" فتبيَّن:

أن التفرق عن الحق والإقرار بالكفر والباطل إنما يكون بعد الابتلاء؛ بظهور البيِّنة وهي القرآن العظيم. فلم يكن الله ليترك الكفّار والمبتدعة يفعلون ما يشاءون حتى يبتليهم بالقرآن، فلمّا تلاه محمد ﷺ صار الناس إلى التفرُّق

---

(١) "بدائع الفوائد"(٢/٢٥٣).

بعد ظهور البيِّنة الناصعة والحجَّة الواضحة، فانحاز أهل الحق لبركة الفرقان وانحاز أهل الباطل للخسران.

وثبت من حديث جابر بن عبد الله في "صحيح الإمام البخاري" أن النبي ﷺ بُعِث ففرَّق بين الناس قال جابر - رضي الله عنه-:

٤٤- **"جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان.. الحديث.**

وفيه:

٤٥- **"فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرَّق بين الناس".** (١)

فالدعوة إلى الحق لا بدَّ أن تحدث ابتلاءً في الناس، وبالتالي فإنه تبعاً لظهور البيِّنة سيكون الصَّدْعُ، بمعنى: سيتفرَّق الناس إلى فريقين: فريق الحقِّ، وفريق الباطل. فعن جبير بن نفير قال:

٤٦- **"جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل، فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله! لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستُغضِب، فجعلت أعجب، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل عليه فقال: "ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيَّبه الله عنه؟ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه؟ والله! لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام كبَّهم الله على مناخرهم في جهنم؛ لم يجيبوه ولم يصدِّقوه! أولا تحمدون الله عز وجل إذ أخرجكم لا تعرفون إلاَّ ربكم، فتصدِّقون بما جاء به نبيِّكم ﷺ قد كفيتم البلاء بغيركم.**

"والله لقد بعث النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبي قط، في فترة

---

(١) "كتاب الاعتصام والسّنّة" باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

وجاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان ! فجاء بفرقان فرَّق به بين الحق والباطل، وفرَّق به بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قفل قلبه بالإيمان ويعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقَرُّ عينه، وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها للتي قال: الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾". [1]

(١) أخرجه أحمد، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٢٨٢٣).